

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com
العدد: ٢٦ / السنة السابعة / (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١١
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول
بسم الله الرحمن الرحيم
نور القرآن
إذا أومض القرآن،
وشعاع روحه ملأ الآفاق...
اخضرَّ الوجود،
وطرب الكون،
وتنقّى العالم من أوزاره،
وبالإشراق والصفاء تسربلت الخليقة،
وبهما العالم ارتدى...
* * *
الحرية وحقوق الإنسان
القِبْلة
نظامنا الفكري
من وجهة أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم





العدد: ٢٦
السنة السابعة
(سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١١

هموم الأقلام

منذ العدد الأول من "حراء" وحتى هذا العدد، والأقلام الكبيرة تتحرك بجد على صفحات هذه المجلة وهي في هَمّ رسم "خصائص الفكر الإسلامي" والإشارة إلى معالمه وحدوده وتُخومه. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا، إن مقالات الأستاذ "فتح الله كولن" في كل عدد من هذه المجلة، أسهمت إلى حد كبير في الكشف عن قارَّة منظومتنا الفكرية، وعن كنوزها المخفية في مصدريها العظيمين "القرآن والسنة".

ومقاله اليوم المتصدر لهذا العدد، واحد من إسهاماته بهذا الصدد، فهو -وكما هو دأبه- لازال يرسم بقلمه الحاد والمرهف معالم نظامنا الفكري من وجهة نظر جديدة ومبتكرة قد تعيننا على المزيد من الفهم والإدراك لأعماق هذا النظام المتفرد بخصائصه بين أنظمة الفكر العالمية.

وفي الاتجاه نفسه يأتي مقال الأستاذ "فؤاد البنّا" ليلفت أنظارنا إلى تلك المقاربات والمقابلات التي تواجه الباحثين وهم بصدد التفكير فيما ينبغي أن يكون عليه "المشروع الحضاري الإسلامي"، ومن خلالها ترتسم معالم هذا الفكر وتتوضح اتجاهاته الفكرية والنفسية والحضارية.

أما "الفاتح" بطل "القسطنطينية" العظيم، فهو كما يقول عنه "ممتاز آيدين" ليس برجل سيف فحسب، بل هو رجل سيف وفكر، وكما فتح البلدان وقوض الإمبراطوريات، فقد فتح الأفكار والأرواح، وأنه بفتحه "القسطنطينية" إنما يطوي حقبة تاريخية من حياة الإنسانية ويفتح حقبة جديدة تحمل بذور حضارة جديدة بمفاهيمها وأفكارها.

وهذه الحضارة لا يستطيع الإنسان بناءها ما لم تكن روحه متشبّعة بثقافة الحرّية وحقوق الإنسان والكرامة البشرية. وهذا هو ما يمضي قلم الأستاذ "محمد عمارة" في الخوض فيه وتأشير معانيه ومقاصده وأسبابه وغاياته في النظام الإسلامي.

وفي "عودة الروح" للأستاذ فتح الله كولن، يكتب الأستاذ "أديب الدباغ" عن القاعدة الأساس التي ينطلق منها أستاذنا في البناء الحضاري الموعود، وهذا الأساس هو "الروح" وضرورة عودتها إلى جسد الأمة من جديد لكي تدب فيها الحياة، ومن بعد ذلك تستطيع أن تبني وتعمر.

وعن أهمية القبلة الفكرية والتعبدية للإنسان، يتحدث الأستاذ "أحمد عبادي" لافتًا النظر إلى ضرورة "القبلة" تعبديًّا وفكريًّا للإنسان، كي لا يزوغ نظره ويتشتت فكره بين أكثر من قبلة، أو أكثر من وجهة نظر.

وفي "الهمّ الحضاري" كذلك يكتب الأستاذ "إدريس نغش الجابري" عن "الحضارة الإسلامية والتكامل في بنية التفكير العلمي" الذي ينبغي أنْ يكون مؤطرًا يؤطر هذه الحضارة ويجعلها في مواكبة لأحدث ما يأتي به العلم من معطيات، وهذا هو الذي يحميها دائمًا من التخلف أو السقوط والانهيار...



المحتويات

فتح الله كولن



نظامنا الفكري من وجهة أخرى

إن العقل والقلب والفكر وأحاسيس الإنسان وكذا الوحي بكل ثمراتها، وأمور أخرى غيرها... لها جميعًا في نظامنا الفكري أهميةٌ بالغة وكأنها وجوه متنوعة لشيء واحد. ونستطيع القول دائمًا بأن هذا النظام أوسع وأرحب من غيره من حيث سعة المساحة التي استقر عليها.

لأن الإسلام رعى دائمًا هذا الانفتاح والسعة في رسائله وتبليغاته إلى الإنسانية. فإنه إذ أقام مناسباته مع المخاطَبين والمنتسبين إليه، اتخذ -في إطار مرجعية العقل- سبيلَ حوارٍ فكريِّ البعد، متلون بالمشاعر، مستند إلى الوحي، ورحيب بالإلهام، وبنى أحكامَه على أسس تربط بين الإنسان والوجود والخالق، متينةٍ وملائمةٍ للمحكمات القرآنية ومعقولةٍ ومنطقية.

إن هذه المناسبة التي أسسها الإسلام على ضوء القرآن، لهي الأشد قوة، والأفضل توافقًا مع الحس الإنساني والأقربُ إلى محاكمته الفكرية، حتى إننا لا نجد في نظام قبله ولا بعده مثيلاً له في رعاية التوازن بين العقل والقلب والروح.

نعم، إن الإسلام هو النظام الأمثل والأنسب مع سجية الإنسان وطبيعته؛ سواءٌ من وجهة عالمه الداخلي الضيق أو من وجهة علاقته بالعالم الكبير الشامل، ولا يوجد مثيل ولا شبيه له في الاستجابة لحاجات الإنسان، ولن يوجد. وهذا الحال طبيعي للغاية، لأن مصدره الأول هو الوحي الصافي النقي، وتفسيره الأول هي السنة؛ فكما القرآن معجز، كذلك نظامه المنبثق والمكوَّن من خطاباته وتعاليمه معجز.. وكما أن القرآن لا مثيل ولا شبيه له، فلا مثيل أو نظير للإسلام الذي يعد من آثاره.

عالم القرآن النوراني

في العالم النوراني للقرآن، يتغير الوجود والأشياء والطبيعة فجاءةً، وتتحول هذه الأمور وتأخذ صورًا مختلفة، ويبلغ الإنسان وأحاسيسُه المادية والمعنوية إلى أعماق غير معهودة، ويسمو العقل -بفضل ذلك البيان المعجز- إلى رؤية الأشياء على حقيقتها، ويتمكن القلب في جوه النيّر من التفسح تمامًا فينمو ويتطور، والروح إنما يحلّق بأجنحة وَارِدَاتِه، فيعلو إلى "عرش كماله" (كمال الروح).. يعلو إلى أن يربط كلَّ شيء بـ"سلطنة القلوب". هذا ما حصل أمس، وهذا ما يحصل اليوم، وهذا ما سيحصل غدًا. ويكفي لتحقيق ذلك أن يستشعر المؤمنون القرآنَ ويتشربوه بعواطفهم وحسهم وشعورهم وإدراكهم... فيستشعروه غضًّا طريًّا صافيًا نورانيًّا يؤجج مشاعر مخاطبيه كما كان في عهد نزوله. والواقع أن الذين لديهم استعدادٌ وقوةُ إحساسٍ ظلوا يجدون في القرآن نفحاتِ العشق والإثارة والشوق والاشتياق، وأن من أنصتوا إليه بأُذُن القلب انتفضوا دائمًا بنداء "الانبعاث بعد الموت" المسموعِ منه عاليًا.

> **الإسلام ينظر إلى الإنسان بعين الخالق تعالى، فيضعه في قالب متين بكله الذي لا يقبل التجزؤَ والانقسام، ويستجيب لمطالبِ أحاسيسه الداخلية والخارجية، ويُعِدُّه بعناصرِ وجوده المادية والمعنوية كلِّها ليكون جاهزًا للسعادة الدنيوية والأخروية وأهلاً لدخول الجنة.**

مفهوم الجهاد في القرآن

نعم، إن القرآن قد جاء بمفهوم مختلف لـ"الجهاد" من حيث كنهه ونكتته؛ جهادِ تحفيزِ الناس ليتعرفوا على أنفسهم وذواتهم.. وجهادِ إنشاء العلاقة مع الوجود كله.. وجهاد التمرد على الجسمانية والنفسانية.. وجهاد أن ينتصر المؤمن على نفسه ويفتحَ قلعةَ ذاته من الداخل.. وجهاد الاستعدادِ المستمر واتخاذِ الموقف الواضح ضد كل العواطف والغرائز التي تهبط بالإنسان من أمثال: العداوةِ والحقد والكراهية والشهوة والضغن والحرص والحسد.. وجهادِ أن يربط كلُّ أحد نفسَه بفكر سام وهدف عال.. وجهادِ تخطّي كل المخاوف والتطلعات.. وجهادِ اعتبار الدنيا غرفةَ انتظارٍ للآخرة وإحياء الأخرويات وإعمار ما هنا كسبيل إلى ما هناك إلى غير ذلك من أنواع الجهاد الكثيرة.

لقد ظل القرآن -قرابة ربع قرن- يقدّم للناس معظم رسائل الجهاد من هذا القبيل، حتى نما بتبليغاته الباعثة على الحياة، فصار ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾(إبراهيم:٢٤) فانتشر وحوَّل مساحات واسعة إلى جنات... نعم، كانت كل آية في عهد النزول كأنها صوت شلالٍ هادر، وماء كوثر عذب متدفق كفواراتٍ دائمة الانبجاس، وبالأحرى، كالفواكه في تباشيرها الأولى القادمة من عالم الألوهية. فكان المشتاقون الطافحون رغبةً يجْنُون هذه الفواكه فور ظهورها بمنتهى الحماس، ويقدّمونها لتقدير القلوب والأرواح ويتتابع التقديم والتقدير كرة بعد كرة بلا فتور، ويقعد ويقوم أولئك المحظوظون كل يوم على هذه المائدة السماوية الآخذة بالألباب. فبفضل هذه الخطوة، كان أولئك المخاطبون المتدفقون حيويةً، يعيشون -بزخاتِ غيث الوحي الهاطل كل يوم على آفاقهم- "انبعاثاتٍ بعد الموت" متشابكةً ومتداخلةً كأنهم سمعوا صوت الصُّورِ من اللانهاية، فيغدو كلٌّ منهم "خضرًا"، فيَنفخ روح الحياة في كل من يمر به... وكانوا يتسلقون ذرى حظوظهم السعيدة "بانبعاثاتٍ" تترى، في حيوية عظيمة دائمة، واشتياق طافح لا يستكين، ورغبات جياشة. الله تعالى يناديهم إلى الانبعاث في العواطف والفكر والروح والقلب بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤)، وهم بدورهم يردون على هذا النداء من دون تردد فيقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾(آل عمران:١٩٣) ويهرولون لتلبية هذه الدعوة الإلهية.

أسرار حيوية المسلم

إن سر حيويتهم الدائمة فيهم كامن في الجو الذي كانوا يعيشونه؛ فأولئك كانوا يستمعون إلى القرآن بقلوبهم ومن غير حكم مسبق، ويؤمنون به بإخلاص تام، ويتوجهون إلى الله في نور هذا الكتاب الجليل، ويحبونه من أعماق قلوبهم.. وكانوا لا يتوقفون عند حدود الحب، بل كانوا يسعون -بكل

شوق عميق- في سبيل تحبيبه إلى كل الناس وجعله مقبولاً لديهم. يعتنون أشد الاعتناء لئلا تتلطخ مشاعرهم وأفكارهم الإسلامية بألوان نزواتهم، ويسعون إلى الترنم بالإسلام وتمثله بذات لونه ونقوشه وبهائه، فلذلك كانوا يتلقون من المخاطَبين "الجواب الصواب".

ففي هذا الجو المضيء النيّر كان الإسلام والقرآنُ يُفهَمان على حقيقتهما؛ فيَصِل إليه الجميع بلا عنت ولا رهق ولا عائق، ويفهمونه، ويرون فيه بعين القلب عظمةَ الحق تعالى، ويقيّمون كل شيء تقييمًا صحيحًا بعقولهم ومنطقهم ومحاكمتهم التي لم تفسد بالدرن والحكم المسبق. ولم يكونوا يَجمُدون عند العلم المجرد مطلقًا، بل يُردِفون العمل بالعلم من فورهم، ويضعون "التمثّل" قبل العلم، ويُحوِّلون المعلومات وما حصَّلوه من معارف إلى قوة محرِّكة، فيحوِّلون علومهم النظرية إلى واقع عملي بيسر وسهولة. فهؤلاء أدركوا في وجدانهم الرحيب الغاية من خلق الإنسان وخلق الوجود، فتذوَّقوا في التوجه إلى الله ومعيتِه تعالى ما يجده غيرهم في المادة والحظوظ الجسمانية والرغبات النفسانية، وتخلصوا من كل ضيق يتعلق بالجسمانية وانفسحوا كل يوم في إقليم القلب الواسع الرحب إلى عمق جديد.

التفسير القرآني

لقد تكررت الحياة -ولو بفواصل زمنية- في ظل تفسيرٍ قرآنيّ سليم، وتصوُّرٍ إسلاميّ مستقيم، وبالأحرى في نظام حياةٍ نابعٍ من التمثل بالإسلام، ذي الأفق السماوي المذهل للعقل، بحيث لم يبلغ الخيالُ شأوَه حتى في تصورات المدن الفاضلة المثالية. ومَن يدري لعل تلك الحياة القرآنية ستتكرر مرات عديدة فيما يأتي من الزمان!؟ فما من عائق يحُول دون الحياة الروحانية بهذه الدرجة مهما تغير الزمان وتحولت العصور.

وإن مثل هذه الحظوة يمكن أن تتحقق في الحاضر أيضًا، إذا تشبَّع المسلمون -في إطارِ ما أشرنا إليه آنفًا- بروح كفاحٍ مكين، ولم ينقادوا للفتور مهما كانت الظروف، وتصرفوا دائمًا بوعي وانتباه، وتعالوا على النفس والجسمانية فأداموا حياتهم حسب أفق القلب والروح، وظلوا يقظِين ومنتبهين حيالَ أيِّ مساوئ قد تصدر منهم بمقتضى طبائعهم وماهيتهم البشرية، ولم يتركوا مجالاً لظهور أي فكرٍ سلبي في عوالمهم الداخلية.

> **إن من أهم جوانب العمق في التصور الإسلامي هو دعوته إلى إعمار الحياة الدنيا التي قد تبدو مستحقرة لدى البعض، وذلك بربط كل شيء برضا الحق تعالى، وإلى جعْلِ الدنيا مكانًا مغبوطًا ومحبوبًا بترتيبها وتجهيزها على اعتبار أنها غرفةُ انتظارٍ ومَمَرٌّ إلى الآخرة.**

وإن من أهم جوانب العمق في التصور الإسلامي هو دعوته إلى إعمار الحياة الدنيا التي قد تبدو مستحقرة لدى البعض، وذلك بربط كل شيء برضا الحق تعالى، وإلى جعْلِ الدنيا مكانًا مغبوطًا ومحبوبًا بترتيبها وتجهيزها على اعتبار أنها غرفةُ انتظارٍ ومَمَرٌّ إلى الآخرة... فيمكن في إطار هذه الفكرة النظرُ إلى الدنيا على أنها مزرعةٌ ومَعْبَرٌ وميناء ومنطلَق للوصول إلى الآخرة.

نعم، إن الإسلام إذ يحاور مخاطبيه، يَأخذ بنظر الاعتبار كلَّ مشاعرهم الظاهرة والباطنة، وكلَّ أعماقهم من أمثال الفكر والحس والشعور والمنطق والإدراك... إنه يَعتبر الإنسانَ كلاًّ جامعًا مع لطائفه وأحاسيسه، ويخاطبه في هذا الإطار، فيستجيب لرغباته ويسد احتياجاته الطبيعية والبشرية، ويمهّد له البيئةَ الصالحة لانفساحه بيسر في كل زمان وفي كل مكان.

خصوصيات الفكر الإسلامي

ومن خصوصيات نظام الفكر الإسلامي، اعتمادُه على مرجعية الكتاب والسنة أكثر من سائر مصادر العلم والمعرفة. فهو بهذا الوجه يتميز عن التنظيمات الدينية والتيارات الفلسفية كلها. فالإسلام منذ ظهوره، باعَدَ بينه وبين الميراث القديم والتنظيماتِ المتنوعة التي تظهر بصورة الدين، وأراد أن يبقى بكيانه وذاتيته... ومع أنه وقَّرَ ما هو غير محرَّف ومبدَّلٍ منها وسماها "شَرْع مَنْ قَبْلَنَا"، لكنه بقي في الأصل مستَمِدًّا من المصادر الأساسية التي نعتبرها "المنهل العذب المورود".

والحق أن الإسلام لم يكن -في أية حال- بحاجة إلى الميراث القديم أو الأحلامِ والفانتازيات الجديدة. وكيف يحتاج إليها وكان سنده القرآن؟ القرآنُ "المتضمِّنُ -إجمالاً- كلَّ الكتب التي جاء بها الأنبياء في مختلف العصور، وكلَّ

رسائل الأولياء بأنواع مشاربهم، وكل آثار الأصفياء بمسالكهم المتشعبة.... اللامعُ من كل جهاتِه؛ من فوقه وتحته، وأمامه ووراءه، ويمينه وشماله... المنغلقُ تجاه كل الأوهام والشبهات... كتابٌ نقطةُ استنادِه الوحيُ السماوي والكلامُ الأزلي باليقين... وهدفه وغايته السعادة الأبدية بالمشاهدة... وباطنه صريحُ الهداية الخالصة... وأعلاه أنوار الإيمان... وأسفله الدليل والبرهان، بعلم اليقين... ويمينه تسليم القلب والوجدان بالتجربة... وشماله تسخير العقل والإذعان بعين اليقين... وثمرته رحمة الرحمان ودار الجنان".[1] لذلك لم يجد الإسلامُ المتغذي من هذا الكتاب حاجةً أبدًا، لا إلى تخيلات المثاليين ولا إلى محصلاتِ منطق الواقعيين، ولا أصولِ وطرق التجريبيين أو غيرهم، ولم يَرجع إليها ولم يَعتبرها مصادرَ موثوقًا بها.

الإسلام يختلف عن النُّظُم السماوية وغير السماوية كافة، بأسلوبه الخاص ومناهجه، وما اقترحه وقدَّمه من حلول للمعضلات البشرية. وهو من كل وجهٍ أنموذجٌ لـ"الكمال" بكل معنى الكلمة. فهو يضع الإنسان في إطار واسع؛ آخذًا بنظر الاعتبار خصوصياتِه الأساسية بتمامها، ومَلَكاتِه الذهنيةَ والفكرية والروحية بمجموعها، ثم يشحنه بطاقات متنوعة... فلا يحصر توجهَه في العقل والفكر، ولا يقيّمه كوجود عقلي ومنطقي بحت، ولا يُهمل أحاسيسه، ولا يغض البصر عن آليات وجدانه كما يفعل قسم من المدارس الفلسفية... بل الإسلام ينظر إلى الإنسان بعين الخالق تعالى، فيضعه في قالب متين بكله الذي لا يقبل التجزؤَ والانقسام، ويستجيب لمطالبِ أحاسيسه الداخلية والخارجية، ويُعِدُّه بعناصرِ وجوده المادية والمعنوية كلِّها ليكون جاهزًا للسعادة الدنيوية والأخروية وأهلاً لدخول الجنة.

أما تحقيق هذه الأمور من البداية إلى النهاية، فنحيله إلى الأقلام المتخصصة للإسهاب فيها تمحيصًا وتحريًا. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

الهوامش:

[1] من الكلمات (الكلمة الخامسة والعشرون)، لبديع الزمان سعيد النورسي، ص:٤١٩، دار النيل، ط١، ٢٠٠٨، القاهرة. بتصرف يسير.



د. فؤاد البنا*

مقاربات ومقابلات
في المشروع الحضاري الإسلامي





لا يختلف عاقلان حول أن أمة المسلمين عانت في القرون الأخيرة من حالة ضعف أسلمتها إلى غثائية، هذه الغثائية دفعت بها في القرن المنصرم إلى ذيل القافلة الحضارية للبشرية. ومنذ عقود وهي تمر بمرحلة صحوة، تحاول من خلالها أن تعاود النهوض الحضاري المعهود عنها بالأمس والمنشود اليوم.

في هذه المقالة نطرح عددًا من المقاربات والمقابلات الجامعة بين تشابه المبنى والمعنى في إطار تكوين المشروع النهضوي المنشود لتقدم هذه الأمة نحو المكانة اللائقة بها في المضمار الحضاري، وتتكون المقالة من ثلاثة عناوين:

امتلاك النظَّارة الفكرية المناسبة

حتى يغادر المشروع الحضاري الإسلامي مربع الصحوة العاطفية إلى ساحة النهوض العقلاني، يتوجب عليه أن يمتلك النظّارة الفكرية المناسبة التي تجعله يدرك الفروق بين الألوان، ويستطيع الفرز في الأشياء المتقاربة في الشكل والمختلفة في المعنى، حتى تكون تحركاته سديدة وقراراته رشيدة، ولاسيما في الموقف من "الاجتهاد" ومن "التعدد" ومن "الآخر الحضاري".

في إطار الاجتهاد ينبغي أن يفرق بين "نفحات" العقل و"لفحات" الهوى، بين "منحة" التفكير العقلاني المنضبط

بالحقائق الشرعية أي المقاصد، وبالحقائق الكونية أي السنن والنواميس والمفضي إلى "التجديد"، وبين "محنة" إطلاق العنان للهوى المجرد من كل ضابط، والمنفلت من عقال اللغة والأصول، والموصل إلى "التبديد".

ينبغي التفريق بين "السدود" المانعة للعقل من أي تفكير وبين "الحدود الضابطة" لطاقته في النظر والفكر والتجديد، حتى يخلو من الأهواء ويتطهر من الشهوات ويتخلص من الشطحات، وبحيث يتركز جهده في عالم "الشهادة" دون عالم "الغيب".

ويجدر به أن يفرق بين "نعمة" النص المقدس و"نقمة" التقليد للاجتهادات البشرية الغابرة التي أكل الدهر على أكثرها وشرب، حتى لم تعد تسمن ولا تغني من جوع التخلف المعاصر، فـ"الدين" تنزيل إلهي؛ أي مطلق، أما "التديُّن" فهو كسب بشري؛ أي نسبي. وينبغي التفريق بين "الالتزام" و "التزمت"؛ فالالتزام مفروض، والتزمت مرفوض، مع أن الفرق بينهما في "المبنى" قد يبدو بسيطًا، لكنه كبير جدًّا في "المعنى".

وفي إطار التعدد الإسلامي، ينبغي التفريق بين تعدد "الآراء" وتعدد "الرايات"، بين تعدد "البرامج" وتعدد "المناهج"، بين تعدد "التكامل" وتعدد "التآكل"... فالأول ينتمي إلى منطقة المتغيرات وهو تعدد سائغ وممدوح، أما الآخر فهو تعدد في منطقة الثوابت وهو من التفرق المذموم.

إن التعدد في منطقة الثوابت مرفوض، لأنه يُشِيع ثقافة "التباين" ويُشَيِّع ثقافة "التعاون"، ولأنه يوزع أسباب "الاختلاف" ويقضي على أواصر "الائتلاف".

وفي إطار التعامل مع الآخر الحضاري وعلى رأسه الغرب الذي يقود القافلة الحضارية للبشرية جمعاء في هذا العصر، ينبغي للمشروع الإسلامي أن يفرق بين التفاعل الحضاري والغزو الثقافي، بين اقتباس "التكنولوجيا" واستيراد "الأيديولوجيا"، بين التسامح والتخاذل، فالموقف الأول "فضيلة" والآخر "رذيلة" بالمقياس الشرعي والعقلي والواقعي.

ويتوجب التمييز في هذا السياق بين الاستفادة "المشروعة" من الآخر وبين التبعية "الممنوعة"، بين التقدم المنشود والحداثة المنبوذة، بين التميز "المفروض" والانغلاق "المبغوض"، بين المعروف المحتّم والولاء المحرّم.

> **إن الوصول إلى عمارة الأرض كطريق عبور إلى السماء للفوز بالجنة يجعل من المحتَّم في هذا الدين العظيم المزاوجةَ المتزنة بين سائر شؤون "المعاش" وسائر شؤون "المعاد"، فلا "انفصام" بين دين ودنيا، ولا "انفصال" بين دنيا وآخرة.**

المزاوجة بين "القيم" الربانية و"القيام" السببي

إن الوصول إلى عمارة الأرض كطريق عبور إلى السماء للفوز بالجنة يجعل من المحتَّم في هذا الدين العظيم المزاوجةَ المتزنة بين سائر شؤون "المعاش" وسائر شؤون "المعاد"، فلا "انفصام" بين دين ودنيا، ولا "انفصال" بين دنيا وآخرة.

ولإيجاد الفاعلية في صناعة الحياة، ينبغي بناء "الإرادة" في الفرد وبناء "الإدارة" في المجتمع، وينبغي امتلاك إرادة "الدعوة" وإدارة "الدولة". لابد أن يكون المسلم الفاعل، بنعومة "الحرير" وصلابة "الحديد"، بحيث يتعامل مع المسالمين بوداعة "الحَمام" ومع المحاربين بقوة "الحِمام".

لابد أن ينطلق لدراسة "الفيزياء" من "الفيزيقيا"، وأن يمتلك أزِمَّة "الكيمياء" وصولاً إلى الكمال البشري الممكن، وأن يجمع بين "صفاء التصور" و"نقاء التصوف"، وأن يعمل على تزكية الأرواح والأشباح في آن واحد، وأن يهتم باكتساب الأخلاق والأرزاق، وأن يوائم في شخصيته بين طبائع "العُمَّال" وخصال "العُبَّاد".

وفي عمله هذا، يتحتم عليه أن ينطلق من "نصوص الكتاب" و"فصوص" الحكمة، وأن يهتم بتنمية القلوب والقوالب، وأن يلتزم بـ"السنن النبوية" و"السنن الكونية"، وأن يعيش دومًا في بحبوحة تجمع بين "ثروة الأفكار" و"ثورة الأذكار"، بين رفرفة الروح واستقامة الجوارح، بين "إقامة الصلاة" للخالق و"إدامة الصِلات" مع الخلق، بين تجميل "المباني" وتحسين "المعاني".

المؤمن الفاعل هو الذي ينطلق للأعمال من العلوم، ويستطيع ضبط "الأفعال" وفق إيقاعات "الأفكار"، يجمع في تكوينه بين إتقان فقه "الأولويات" وإتقان صناعة "الآلات"، يوائم بين "الثقافة" و"التقانة"، لا تمر محطة حياتية دون أن يتزود منها، حتى ولو كانت الأفراح والأتراح.

المؤمـن الحق يـزاوج بين النقل والعقـل، ولذلك يمتلك بوصلة الفكر الرشـيد والفعل السـديد، ويوائـم بين متطلبات العقل والأكل، بين التزود من الشـعائر والشطائر، يهتم بإيجاد الأمن "النفسـي" عبر الإيمان "العميق"، والأمن "الحسي" عبر العمـل "الدقيـق"، ويهتـم بتمتيـن الضمائر والعمائـر وبتنظيم المشـاعر وتوحيد العشـائر، وكذا بإشـعال المصابيح؛ سـواء كانت مصابيح "الهداية" أو مصابيح "الإنارة"، لأن فقهه يمنحه القدرة على تفعيل الشرع في الشوارع.

المؤمـن الحـق يتميـز بالفاعلية فـي التفاعـل الخلاق مع "الأيديولوجيـا" و"التكنولوجيـا"، ولذلـك تجـده فـي معركة تهذيـب "النفـس" كما تجده فـي معركة تكريـر "النفط"، فهو لا يملّ من تصفية نفسـه من الشـوائب كما لا يكلّ من تصفية النفـط من مشـتقاته، تجده حاضرًا في مجـال "التربية" العقلية وفي سـياق "التعبئة" العاطفية، وهو لا يفرق بين حفظ "سـور القرآن" والمحافظة على "أسوار الأمة"، لأنه دائم الشعور بأنه على ثغرة من ثغور الأمة، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو تربوية أو اجتماعية أو ثقافية أو عسكرية.

المؤمـن الحـق يصنـع الحيـاة ويعمـر الأرض بفاعليـة، عندمـا يهتم بتشـييد الجوامع والجامعـات، وبابتناء المدارس والمتـارس، وبإعلاء المآذن والمداخـن، وبتفعيل المحاريب والمحاريـث، وببناء المنارات والمطارات، وبتطوير الشـرائع والمشاريع، وكذلك بتوسيع "البيادر" وابتكار "المبادرات"...

سـرّ فاعليـة المؤمـن؛ أن عبادتـه فـي محـراب "الحياة"، وليسـت فقـط في محـراب "الصـلاة"، ومن ثم فهـو لا يفرق بيـن تطوير التشـريع وتطويـر التصنيع، لا يفـرق بين "صوامع المسـاجد" و"صوامـع الغـلال"، ولا بيـن "أعمدة المسـاجد" و"أعمدة الكهرباء"، وهو شديد الحرص على ملء "الأشواق" بمحبة الخالق وتعبئة "الأسواق" بكل ما ينفع المخلوقات.

وكما أن المؤمن شـديد المحافظة على "أوراده" الروحية، فهو شـديد المحافظـة على "أوردته" الجسـمية، حيث تتعانق الـروح مـع الجسـم، ويتوحد المبنـى مع المعنـى، فلا مجال لدهون الغفلة و "كوليسترول" الرتابة في حياته، وإذا حضرت فإنه يذوِّبها بالتذكر والاستغفار.

والمؤمـن الحق يعتـزّ بلغة القرآن، ولهذا فإنه يحافظ على "القواعد النحوية" من الغزو الثقافي كما يحافظ على "القواعد العسـكرية" من الغزو الحربي، ويجتهد في تطوير "المشتقات اللغوية" كاجتهاده في تطوير "المشـتقات النفطية"، وينظر إلى "النحـاة" كما ينظر إلى "الدعـاة"، لأن اللغة هي إحدى روافع أيّ أمة نحو الأوج الحضاري، فكيف بلغة القرآن؟!

المؤمـن الحق هو لبنة متينة فـي الجدار الحضاري لأمته، لأنـه مهتـم ومهمـوم بكل ما يوصـل هذه الأمة إلـى المعراج الحضـاري من روافع وقنوات، بما في ذلك "القنوات المائية" التـي توزع الحياة إلـى الأرض اليباب و "القنـوات الفضائية" التي توصّل صوت الإسـلام إلى كل بيت في هذه المعمورة حتى تتحقق نبوءة المصطفى ﷺ في هذا المضمار، وقبل ذلك "القنـوات الروحيـة" التي تحمـل دعوات المؤمن إلى سـدرة المنتهى في لمح البصر.

وهو مهتم ببناء السفن التي ترتاد هذه القنوات، سواء كانت "السـفن البحرية" أو "السـفن الفضائية"، فلا يفرق بينهما وبين "سفن النجاة" من عذاب الله! ولا يفرق في هذا المضمار بين بناء حاملات "الطائرات"، وبناء "الطيارين" إلى الله الذين يعرجون إليـه بفضـل جناحي العلم والإخـلاص. ولا يفرق كذلك بين صناعة الصواريخ العابرة للقارات والسهام العابرة للسماوات، ولا يفتـأ يعمـل باجتهـاد مـن أجـل إتقـان قواعـد الإطـلاق لهـذه الصواريـخ، وإصـلاح قلوب الإطـلاق لتلك السـهام.

تعبيد طريق النهوض الشامل

مـن أجـل الوصـول إلـى ذروة التقـدم الحضـاري، لابد من تعبيـد الطريق إلى القمة بمجموعة من الأسـباب والمقدمات الضروريـة لذلـك، وهـي مـن "المتـن" العبادي وليسـت من "الهامـش". إن إيصـال الإسـلام إلـى عقول وقلـوب الناس، يحتِّم على أهل الدعوة والتربية أن ينطلقوا مما هو "كائن" إلى مـا يجـب أن "يكون"، مع ما يقتضي ذلك من إبراز "التيسـير" واسـتبعاد "التعسـير"، ومـن تقديـم "التبشـير" علـى حسـاب "التنفيـر"، وتقديـم الأمـر بالمعروف على النهـي عن المنكر، والحـرص فـي هـذا السـياق علـى إشـاعة ثقافـة "التناصح" والابتعـاد عـن أسـاليب "التفاضـح"، وأن يظـل الناصحـون "دعاة لا قضاة"، بحيث يتعاملون مع الناس بحرصٍ وتسـامح "الدعاة" لا بصرامة وحِدِّية "القضاة".

ومن أجل نمو المشـروع الحضاري الإسـلامي، ينبغي أن يوصِل حبل فِكْرِهِ بنهر "التجديد"، مع تجفيف مستنقع "التقليد" الراكـد، أي أن مـن الضـروري بمكان، رفع بيـارق "التفكير"، وحتى يتحقق ذلك، لابد من تنكيس رايات "التكفير".

لقد أمرنا الله بالدخول إلى الإسلام من كافة الأبواب عندما

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(البقرة:٢٠٨). وحتى يتحقق "شمول" الإسلام، لابد من تقليم أظافر "الشمولية" التي تنافس الله في خصائص ألوهيته في كثير من مجالات الحياة.

ومن أجل تحقيق "الجهاد" الشامل في حياة الأمة، لابد من إطلاق العنان لـ"الاجتهاد" في كافة العلوم والمعارف وسائر التخصصات. ومن أجل إبراز "خصائص" الإسلام الذاتية، لابد من مراعاة "خواص" سائر الشعوب ووضع مميزاتها الاجتماعية الحسنة بعين الاعتبار، فلا تعارض بين خصائص الإسلام وخصوصيات الشعوب.

من أجل نمو المشروع الحضاري الإسلامي، ينبغي أن يوصل حبل فِكْرِهِ بنهر "التجديد"، مع تجفيف مستنقع "التقليد" الراكد، أي أن من الضروري بمكان، رفع بيارق "التفكير"، وحتى يتحقق ذلك، لابد من تنكيس رايات "التكفير".

إن شمولية الإسلام، تتطلب من المسلم أن ينقل عبادته من "محراب الصلاة" إلى "محراب الحياة"، وليتحقق ذلك يتعين عليه الخلاص من أسْر العادات، وأن يعي ويتذكر أنه يتقلب دومًا بين أطباق العبادة وصفوفها في سائر الساعات وشتى التصرفات ومختلف الظروف: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأنعام:١٦٢)، وبهذا فإنه يحتسب الأكل مثلما يحتسب الصيام، ويحتسب الصمت كما يحتسب الكلام، ويحتسب النوم كما يحتسب القيام، وبالمثل يحتسب الضحك كالبكاء، والفرح كالترح، والغنى كالفقر، والرفاه كالتقتير، والتمتع بالطيبات كالصبر على النوائب... فلقد علّمنا القرآن، أن الله ﷻ ابتلى نبيه سليمان عليه السلام بالمُلْك والتمكين كما ابتلى موسى عليه السلام بالاضطهاد والكيد، وابتلى محمدًا ﷺ بالأمرين.

إثبات الوجود يتطلب تطبيق الحدود الإسلامية

ومن أجل أن تعود الأمة إلى "المكانة" التي تليق بها، ينبغي استثمار "إمكاناتها" كروافع للوصول بها إلى تلك المكانة التي تحقق وجودها وشهودها الحضاريين. لكن إثبات "الوجود" يتطلب تطبيق "الحدود" الإسلامية في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والأخلاقية والتشريعية، بمعنى "مقاربة" سائر الأوامر وعدم "مقارفة" شتى النواهي.

عندما تفعل الأمة ذلك، تكون قد حققت "وحدانية" الله في حياتها، وبذلك تتحقق "وحدتها". فلا وحدة بدون وحدانية ولا سيادة بدون استقلال الحاكم الكوني بالتشريع والتوجيه.

وبالطبع، فإن عودة الإسلام إلى مكانته اللائقة به لا تتحقق بالمعجزات، بل بوثبات الرجال الذين يتخرجون من محراب الصلاة ليعملوا في صناعة الحياة، وهؤلاء هم "الفوارس" الذين يتوجب استخلاصهم بمحاربة "الفيروسات" التي تسرق الرجولة، تاركة الأفراد مجرد ذكور.

ومن أجل إقامة "الدولة" التي تحتكم إلى الإسلام وتحكم به، لابد من تقوية صروح "الدعوة" التي يحسن أبناؤها فقه الإسلام ويجيدون تجسيده في حياتهم ويتقنون عرضه بسلوكياتهم. فإن إقامة دولة الله في القلوب والأعمال أكبر ضمانة لإقامة دولة الله في حياة الناس.

ولا يستطيع أي مجتمع أن يبني مداميك قوية "للتنمية" ما لم يتخلص من "التعمية" التي يمارسها الاستبداد، سواء كان فكريًا أو سياسيًا، وسواء انتمى أصحابه إلى السلطة الدينية أو إلى السلطة الزمنية. ولا ينبغي أن ينسى أحد في هذا السياق، أن امتلاك "الحقيقة المطلقة" من حق الله وحده، وبالتالي فلا "قطيعة" ولا أحكام "قطعية" في التعامل مع المنتسبين إلى هذا الدين إلا عندما يتعلق الأمر بالأحكام "القطعية" التي صارت محل اتفاق الأمة بالفعل، ودخلت ضمن دائرة المعلوم من الدين بالضرورة.

وفي الأخير، لا يصح نسيان "المآل" عند تجميع "المال"، وينبغي الحذر من السقوط من علياء "عمارة" الأرض إلى هاوية "عبادة" الدنيا، والحذر من الانزلاق من قمة "التعامل الظاهري" مع الناس، إلى وهدة "الرؤية السطحية" التي تدرك الشكل دون المضمون وتركز على الاسم دون المسمى.

وعند قراءة الأحداث، لا ينبغي الخلط بين الحذر وبين التفسير التآمري مع إدراك خطورة القفز من "التفسير" إلى "التبرير"، وخطورة الانغماس في "الآني" على حساب "الآتي" أو الالتفات عن الحاضر إلى الماضي. ■

(*) أستاذ مشارك للفكر الإسلامي السياسي بجامعة تعز / اليمن.

ممتاز أيدين*



السلطان محمد الفاتح

فاتح الإنسان والعمران

دأبت كتب التاريخ ودوائر المعارف (الموسوعات التاريخية) على ذكر السلاطين العثمانيين بأسمائهم الصريحة، مع إلحاق هذه الأسماء بترقيم لاتيني على شكل (I - II)، تبعًا للتسلسل التاريخي، مثل "مراد IV" (مراد الرابع)، و"عبد الحميد II" (عبد الحميد الثاني)، و"سليم III" (سليم الثالث). وعند مطالعة اسم " السلطان محمد II" قد لا يتذكر القارئ لأول وهلة أيّ سلطان مقصود هنا؟! وربما يخمنه مع بعض التردد. ولكن عندما يُذكر نفس السلطان باسم "السلطان محمد الفاتح"، فإنه يعرفه على الفور، بل وتتداعى إلى الأذهان كثير من المعلومات حوله؛ حيث إن هذا السلطان قد استفاضت شهرته وعُرف بصفة "الفاتح" باعتبارها لقبًا له أكثر من شهرة "محمد الثاني" وهو اسمه، وقد سبق لقبُه اسمَه "في التركية".

وعلى الرغم من قيام السلاطين السابقين له بفتوحات عديدة، وامتداد رقعة الخلافة العثمانية في أزمانهم وخلال سنوات حكمهم، إلا أن امتياز السلطان "محمد الثاني" عليهم بلقب الفاتح جاء عن جدارة واستحقاق، ويمكن الوقوف على حقيقة ذلك بدقة من خلال جهوده المشكورة في فتح إسطنبول، تلك الجهود التي استمرت حتى عام ١٤٥٣م.

إسطنبول في التاريخ الإسلامي

ورد ذكر إسطنبول بكثير من الإجلال في مصادر التاريخ الإسلامي، وتعددت محاولات فتح هذه المدينة، تلك المحاولات الضاربة في عمق التاريخ. فخلال عهد الأمويين تم محاصرة إسطنبول برًّا وبحرًّا أربع مرات، بيد أنه لم يتم فتحها.

وقد شارك كثير من الصحابة في بعضٍ من هذه الحملات، وفي مقدمتهم الصحابي الجليل "أبو أيوب الأنصاري" ﷺ. وقد جاء هؤلاء الأصحاب الأطهار لينالوا شرف الوصف وعظيم الأجر الذي بشّر به النبي ﷺ أول جيش يفتح القسطنطينية.. فقد قال النبي ﷺ: "أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفورٌ لهم" (رواه البخاري). غير أن هؤلاء الفضلاء نالوا الشهادة ولم يستطيعوا فتحها.

محاولات فتح إسطنبول

في عهد الخلافة العباسية، انتهت الحملة الوحيدة التي خرجت لفتح إسطنبول أمام السواحل.

ثم تلا ذلك ظهور الأتراك على ساحة التاريخ، ووصول "قوتالميش أوغلو سليمان بك" (Kutalmışoğlu Süleyman Bey) من سلاجقة الأناضول، حتى حدود "أوسْكودار"، ثم مرور "جاقا بك" (Çaka Bey) الذي أسَّس إمارة صغيرة في "إزمير" بعد أيام عسيرة في مواجهة البيزنطيين، لكي ينال شرف فتح المدينة، لكنه لم يحالفه التوفيق.

وتمثل إسطنبول في الذاكرة العثمانية، المدينةَ الأصعب فتحًا، والأكثر حصارًا، والأشد منعة، والتي مثلت صعوبة جمة أمام العثمانيين.

وقد حاول السلطان "يلديرم بيازيد" فتح إسطنبول أربع مرات بعد محاولات كلٍّ من "أورخان بك"، و"مراد الأول"، غير أن جيش "تيمورلنك" القادم من الشرق لغزو الأناضول كان حائلاً دون إتمام ذلك الفتح.

أما الحصار الأخير قبل الفتح، فقد حدث في عهد السلطان "مراد الثاني" والد "الفاتح".

وبعد ما لا يقلّ عن ثلاث عشرة محاولة نجح السلطان "محمد" في فتح إسطنبول، مستفيدًا من كل التجارب السابقة عليه. ولهذا فقد نُعِتَ في كتب التاريخ بلقب "الفاتح" الذي اكتسبه بهذا الفتح الرائع.

آمن السلطان محمد الفاتح أن القيم السامية والمبادئ النبيلة التي تحلى بها دينه الحنيف، لابد أن تغرس بُذورها في تربة هذه المدينة وتصبغ صبغتها على كل جنبات إسطنبول حتى يكون الفتح قد اكتمل وبلغ الغاية والمبتغى.

أهمية فتح إسطنبول

وعلى الجانب الآخر، كانت هناك أهمية خاصة لهذا الفتح بالنسبة للعالم الإسلامي آنذاك. فقد توقفت الفتوحات في العالم الإسلامي في تلك العصور، وتحول العالم الإسلامي من حالة تمدد وانتشار في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، إلى حالة انكماش وتراجع وانكفاء على النفس وترك الساحة للآخرين، وظهر الضعف في حركة الفتوحات لفترة طويلة.

كما أنه لم يتبق من هيبة الدولة العباسية شيء، ولم تكن آثار غارات المغول التي أضعفت كثيرًا من قوى المسلمين قد مُحيت بعدُ من الأذهان، بالإضافة إلى انشغال المسلمين لفترات طويلة بالتصدي للحملات الصليبية القادمة من الغرب.

إن إحياء السلطان محمد الفاتح لحركة الفتوحات التي توقفت لسنوات عدة، وفتحه لأبواب العالم الغربي أمام المسلمين، قد أحدث سعادة وفرحة عارمة على امتداد العالم الإسلامي لم تحدث منذ موقعة "ملاذ كرد".

ولذا لم يكن للسلطان محمد مكانة مرموقة في التاريخ

التركي فحسب، بل تميز واشتُهر بين القادة العظام الفاتحين في تاريخ الإسلام أيضًا، بالتالي نال مدح الرسول ﷺ بأنه من خيار الأمراء حيث قال ﷺ: "لَتُفْتَحنّ القسطنطينية، فلنِعْم الأمير أميرُها، ولَنِعْم الجيشُ ذلك الجيش" (رواه أحمد).

غير أن الأمر لم ينته بالسلطان محمد الفاتح بفتح إسطنبول فقط، بل إنه كان على وشك التحرك من جديد صوب أوروبا استكمالاً لمسيرة الفتوحات. فكان يجب أن تستمر "الفتوحات" و"التوسعات" التي تعبّر عنها كلمة "الفتح" بصدق ووضوح، بهدف نشر قيم الإسلام ومبادئه الإنسانية الراقية.

أخلاق الفاتحين المسلمين

ووفقًا لما يأمر به الدين الحنيف؛ فقد تصرف السلطان محمد الفاتح بعد دخول المدينة يوم التاسع والعشرين من مايو تصرف النبلاء، فقد أوضح لأهالي إسطنبول وللعالم أجمع أنه لم يأت إلى هنا لأسباب عسكرية فقط، بل إنه جاء لغاية أعظم، وأخذ يهدئ من رَوْع أهل المدينة الذين كانوا في حالة اضطراب وخوف بسبب سير الفاتحين في ذلك الزمان، إلا أنه خاطبهم قائلاً:" أقول للجميع؛ إنه ومن اليوم لم يعد هناك خوف على حياتكم وحريتكم".

وأعلن أن الشعب بكل أطيافه والكهنة "القساوسة"، يمكنهم العيش وفقًا لأديانهم ومعتقداتهم، ولم يكتفِ بالسماح لبطريكية الروم بممارسة أنشطتها فحسب، بل سمح للطائفة اليهودية بامتلاك المعابد، وترك للأرمن حرية اختيار بطريك على رأس الطائفة الأرمينية.

وظهر بوضوح كالشمس المشرقة، صدق ما قاله الأهالي والقساوسة من أهل المدينة قبل الفتح، وأنهم كانوا محقين في رؤيتهم عندما قالوا: "نفضّل أن نرى العمامة العثمانية في إسطنبول على أن نرى قبعة الكاردينال".

لم ينجح السلطان محمد الفاتح في فتح إسطنبول فحسب، بل قد نجح في فتح قلوب أهالي هذه المدينة أيضًا، دون أن تكون هناك أي قوة تجبره أو تضغط عليه لفعل هذا، وإنما لامتثاله أخلاق الإسلام وقيمه ومبادئه السامية.

إعمار مدينة إسطنبول وتنميتها

ثم جاءت مرحلة تنمية المدينة وإعمارها؛ فأعاد السلطان محمد الفاتح إعمار المدينة عبر البدء بإصلاح الأماكن التي دُمرت إبان الحصار، وبدأ في دعوة السكان الروم المقيمين في إسطنبول إلى الإسلام عبر تعريفهم به، كما بدأت فعاليات الإسكان بهدف تحويل المدينة ديمغرافيًّا إلى مدينة عثمانية؛ فأحضر ما يقرب من خمسة آلاف شخص أغلبهم من أماكن متعددة بالأناضول، وجزء منهم أيضًا من منطقة "الروم إيلي" حتى سبتمبر ١٤٥٣م، وتم تسكينهم في إسطنبول.. إذ آمن السلطان محمد الفاتح -كأجداده الأجلاء- أن القيم السامية والمبادئ النبيلة التي تحلى بها دينه الحنيف، لابد أن تغرس بُذورها في تربة هذه المدينة وتصبغ صبغتها على كل جنبات إسطنبول حتى يكون الفتح قد اكتمل وبلغ الغاية والمبتغى.

وهكذا فقد هدف السلطان إلى أن تتعلم المجتمعات المختلفة في العرق والدين، كيف تتعايش معًا جنبًا إلى جنب، وأن يصبح السكان المسلمون نموذجًا يُحتذَى لغيرهم من الشعوب أيضًا.

إسطنبول في العقلية العثمانية

إن فتح إسطنبول كان بمثابة "التفاحة الحمراء" التي راودت خيال العثمانيين، وهو الأمر الذي يعتبر بداية لفتح الروم، وهو الفتح الذي تحول به العثمانيون لـ"دولة عالمية" تحكم العالم الإسلامي في الشرق، والعالم المسيحي في الغرب.

ومن المعلوم أن "الفاتح" الذي نشأ بهذه المثالية، سعى لحماية هذه العادات والتقاليد عبر حثّ رعاياه من الإيطاليين على تعلّم تاريخ روما، ولعل رأي "Jacopo Langusebi" الذي عاش بإسطنبول بعد فترة وجيزة من فتحها، يطابق رأي السلطان "الفاتح" حيث يقول: "يجب أن تكون هناك إمبراطورية واحدة، وعقيدة واحدة، وحكم واحد على مستوى العالم، وليس ثمة مكان أكثر مناسبة لتأسيس هذا النموذج من إسطنبول". فهذا -بلا شك- يجب أن يكون واحدًا من دواعي اتخاذ مدينة إسطنبول عاصمة للدولة العثمانية.

وفي صيف ١٤٥٦م أوكل الفاتح إلى"Amirutzes" مهمة إعداد خريطة العالم، ليتعرف على العالم الذي استعد لغزوه.

ومن أجل فتح الغرب، فقد استمرت حملات الفاتح بالقارة الأوروبية، فأرسل في البداية حملةً إلى بلاد الصرب، تلاها فتح بلاد المورة، والأفلاق، والبوغدان، وسمندر، وميدلي، ورودس، وأثينا، والبوسنة.

محمد الفاتح "إمبراطور الروم"

ثم تبع ذلك الخروج في حملة إلى إيطاليا والاستيلاء على مدينة "ترنتو"، وتحويلها إلى قاعدة عسكرية. وقد شكّلت الهجمات الصادرة من هذه القاعدة بدايةً تهدف لفتح روما، ثم ما لبث أن تحول العثمانيون -بامتداد حدودهم داخل أوروبا- إلى دولة عالمية. فقد حوّل السلطان "الفاتح" هذه الدولة التي أسّسها "عثمان غازي" قبل مائة وخمسين عامًا كـ"دولة قبَلية"، إلى دولة عالمية. مما دعا بعض المؤرخين البيزنطيين الذين وُجدوا إبان هذه الفترة، أن يلقّبوا الفاتح بـ"إمبراطور الروم" لاستحواذه على الإمبراطورية الكائنة بإسطنبول.

أما في الأناضول فكانت بعض الدويلات والإمارات الصغيرة، تهدد وحدة هذه المنطقة، وفي مقدمتها "الكرمانيين" الذين توجه إليهم "الفاتح" في البداية، وأعقبهم في المرحلة الثانية إمارة "آق قويونْلو" والتي كانت تمثل تهديدًا كبيرًا على وحدة المنطقة، حيث إن العثمانيين كانوا قد تعلموا دروسًا كبيرة من حادثة "تيمور" المماثلة لهذه الأحداث. ومع تخلّص العثمانيين من هذه القلاقل بانتصار معركة "أُطْلُوقْبَلِي" (Otlukbeli) وبإلحاق ممالك "ذو القادر"، و"اسفنديار"، و"جاندار" و"عالية" للدولة العثمانية كانوا بذلك قد أحكموا سيطرتهم على جميع الأناضول.

ومع استمرار تحركات وغزوات الفاتح، فقد تشكل الجانب السياسي والعسكري للدولة العالمية، بالإضافة إلى أن هذا النموذج المثالي العظيم أوجد العديد من الفعاليات المتعلقة بالثقافة والحضارة والعلم؛ حيث كان العثمانيون لا يزالون محكومين بعاداتهم وتقاليدهم ومعاملاتهم التي ورثوها عن "الدولة القبَلية".

تنظيم محمد الفاتح شؤون الدولة العالمية

تلا ذلك، مرحلة تحديد المبادئ واللوائح الإدارية والقانونية والاقتصادية، ومع صدور القوانين المعروفة باسم "دستور الفاتح"، ظهر كيف ستُدار الدولة، وأي المناصب سيتم استحداثها، كما تم ربط وظائف وصلاحيات مسؤولي وموظفي هذه المناصب بنظام محدد، بالإضافة إلى تحويل القانون إلى قانون مكتوب، مع الأخذ في الاعتبار الأوضاع القائمة آنذاك. وعليه فقد حلت الدساتير المدونة محل العادات والتقاليد والأعراف على نحو يليق بعظمة الدولة ومكانتها.



المسجد والمدرسة كلاهما من عوامل النهضة

وبجانب المسجد الذي يحمل اسمه، فإن تشييد الفاتح للمدرسة الدينية "الصحن الثماني" (Sahn-ı Seman) التي تماثل الجامعة في وقتنا الحالي، يعد إكمالاً للقاعدة التعليمية النموذجية. فمنذ أن تأسست هذه المدرسة التي تُعد بمثابة أكبر جامعة في العالم الإسلامي آنذاك، كان يتم اختيار الأطفال النابهين ثم يرسلون إليها، حيث يتلقون العلوم الطبيعية والدينية جنبًا إلى جنب. ومن ثَم فقد تحولت أيضًا "مدرسة الأندرون" التي شُيدت بهدف إعداد رجال الدولة، إلى مدرسة تستطيع أن تلبّي الاحتياجات من الموظفين المؤهلين لإدارة الدولة المترامية الأطراف، وذلك بعد أن تم إجراء بعض الإصلاحات عليها.

وقد توفي "الفاتح" في سنّ مبكرة عن عمر يناهز تسعة وأربعين عامًا بعد أن حقّق حلم "التفاحة الحمراء" تاركًا إياها لمن خلفه من الأجيال القادمة. فقد فتح وضم على امتداد عهد سلطنته سبع عشرة دولة ومائتي مدينة، غير أن كل هذه الانتصارات والفتوحات والعروش لم تُلْهِه عن أن يكون سلطانًا حقيقيًّا يدرك مسؤوليته التي حملها على عاتقه أمام ربه والإنسانية جمعاء، ويعي مكانته كخادم وحارس للقيم الإسلامية الإنسانية الراقية. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: سارة رفعت حمدان محمد.



الحرية وحقوق الإنسان

إن علامة الإسلام وجوهره؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وبالتوحيد يتم تحرير الإنسان من استعباد كل الطواغيت والقوى المادية والموهومة، والظواهر الطبيعية التي طالما استعبدته على مر تاريخ الوثنيات. ولذلك كانت شهادة التوحيد أفعل شهادات التحرير للإنسان؛ ذلك أن إفراد الله بالعبودية والإخلاص له، لا يحرران الإنسان فقط من استعباد الطواغيت، وإنما يمثلان تدينًا بدينٍ جعل التحرر والحرية مَعْلَمًا من المعالم الرئيسة التي جاء بها كتاب هذا الدين، وركنًا من أركان الرسالة الخاتمة التي بلغها الرسول ﷺ.

الحرية والتحرير في القرآن الكريم

فالقرآن الكريم يذكر الحرية والتحرير ضمن معالم هذه الرسالة المحمدية، وذلك عندما يتحدث عن المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الأعراف:١٥٧).

فمن مهام هذا الدين ومعالمه؛ وضع الآصار عن الإنسان وتحريره من الأغلال، بل لقد بلغ سمو الإسلام وحرصه

على إنسانية البشر إلى أن جعل الحرية فطرةً فطرَ اللهُ الناس عليها، مطلق الناس وليس فقط الذين حررتهم شهادة التوحيد. فهي من معالم تكريم الله ﷻ للإنسان مطلق الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠). وعندما قال الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ كلمته الجامعة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟! كان "الناس" هنا نصارى غير متدينين بالإسلام، لكنهم من خلق الله الذين استحقوا التكريم بخلق الله ﷻ.

إن حرية الإنسان محكومة بحقوق الله ﷻ التي هي حدود الشريعة ومعالمها وفلسفتها في التشريع. وهنا تكون العبودية لله حرية وتحريرًا، وتكون الحرية والإنسانية ملتزمة بآفاق الشريعة وحدود الله ونطاق العبودية لله الواحد.

الإسلام وتقويض نظم الاسترقاق

ولم يقف الإسلام عند تحرير الروح وحدها من عبودية الآصار والأغلال التي شدتها إلى الطواغيت -رغم أنها الجوهر ونقطة البداية في التحرير- وإنما شرع في تقويض نُظم الاسترقاق التي جاء فوجدها سائدة في النظم الاجتماعية والاقتصادية بكل الحضارات. فأمام الروافد العديدة والمنابع الكثيرة التي تمد نهر الرقيق -صباح مساء- بالجديد والمزيد من الأرقاء، من مثل الحروب العدوانية، والغارات الدائمة، والفقر المدقع، والعجز عن سداد الدَّيْن، وقطع الطريق ...إلخ. فقد شرع الإسلام في إغلاق كل هذه الروافد والمنابع، ولم يبقَ سوى الأَسْر في الحروب المشروعة، وحتى أسرى هذه الحرب المشروعة خيّرهم بين "المن" وبين "الفداء".

ثم استدار -بعد تجفيف منابع الاسترقاق- إلى تركة ذلك النظام، فوسّع مصابّ نهر الرقيق، فجعل كفارات العديد من الذنوب تحريرَ الأرقاء، ورغّب في هذا التحرير طلبًا للحسنات والعتق من النار.

ولقد جعل الإسلام هذا العتق أو تحرير الرقاب أحد مهام الدولة الإسلامية، ومصرفًا من مصارف الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام الخمسة، بل وتقدم على درب التحرير خطوات أبعد عندما أعطى الرقيق من الحقوق؛ من مثل المساواة بمالكيهم، والمشاركة لهم في الطعام واللباس، وعدم تكليفهم من العمل ما لا يطيقون، بل وإلغاء كلمتي "العبد" والـ"الأَمَة" في لغة الخطاب واختيار كلمتي "الفتى" و"الفتاة" بدلاً منهما،[١] الأمر الذي جعل الاسترقاق "عبئًا اقتصاديًّا" على مُلاك الرقيق بعد أن كان من أهم مصادر "الاستغلال" والإثراء.

بهذا الإصلاح "الجذري والشامل والمتدرج" في ذات الوقت، أنجز الإسلام بالسلم ما لم تنجزه الحروب والثورات في ميدان تحرير الأرقاء؛ فأقام مجتمعًا بلغ فيه بلال الحبشي ﷺ -الذي كان رقيقًا، اشتراه أبو بكر الصديق ثم أعتقه- المكانة التي يقول عنه مثل عمر بن الخطاب: سيدُنا (أي أبو بكر) أعتق سيدَنا (أي بلالاً). (رواه البخاري)

وإذا كانت حضارات حديثة ومعاصرة قد جعلت الحرية "حقًّا" من حقوق الإنسان، فإن الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا، قد جعلها "فريضة إلهية وواجبًا شرعيًّا وضرورة من الضرورات" لا يحل للإنسان أن يتنازل عنها حتى بالطواعية والاختيار، بل وجعلها بمثابة "الحياة".

لقد علّل علماؤنا جعْل الإسلام كفارة "القتل الخطأ" تحرير رقبة، بأن "الرقَّ موتٌ" و"الحريةَ حياةٌ". فلما كان القاتل قد أخرج نفسًا من عداد الأحياء إلى عداد الأموات، فعليه أن يُخرِج نفسًا من عداد الأموات (الأرقاء) إلى عداد الأحياء (الأحرار). نعم، قال علماؤنا بذلك في تفسيرهم لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾(النساء:٩٢).

ضوابط الحرية المشروعة

وإذا كانت كل الحضارات والعقائد والمجتمعات قد اشتركت في وضع ضوابط وآفاق للحرية المشروعة لا تتعداها، فإن هذه الضوابط والآفاق التنظيمية قد تمايزت في هذه الحضارات والمجتمعات بتمايز فلسفاتها الخاصة بمكانة الإنسان في الكون، وطبيعة العلاقة بينه وبين خالق هذا الكون؛ فما يُعَدّ في مجتمعٍ ما وعقيدةٍ بعينها مقوّمًا من مقوماتهما الاجتماعية، وأساسًا من أسس عمرانهما، وركنًا من أركان اجتماعهما البشري، يجعلونه سقفًا للحرية لا تتعداه.

فليس هناك مجتمع يفتح آفاق الحرية وأبوابها "للخيانة الوطنية" أو لتقويض "أسس النظام الاجتماعي" أو "للجريمة"

أو "للعدوان"، بل ولا "للعيب" في ذات الحاكم أو "إهانة" قطعة قماش إذا كانت علَم الوطن ورمزه. فالجميع متفقون على أن هناك سقفًا للحرية وآفاقًا يجب أن لا تتعداها؛ حفاظًا على المقومات التي يحفظ قيامها ما هو متاح للجميع من حريات وحرمات.

إذا كانت حضارات حديثة ومعاصرة قد جعلت الحرية "حقًا" من حقوق الإنسان، فإن الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا، قد جعلها "فريضة إلهية وواجبًا شرعيًّا وضرورة من الضرورات" لا يحل للإنسان أن يتنازل عنها حتى بالطواعية والاختيار، بل وجعلها بمثابة "الحياة".

الإسلام وآفاق الحرية الإنسانية

والإسلام مع هذا المبدأ، لكنه يتميز في الفلسفة التي تحدد آفاق الحرية في المجتمع الذي تسود شريعته فيه. والمدخل إلى هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة في آفاق الحرية الإنسانية، هو نظرة الإسلام إلى مكانة الإنسان في هذا الكون.

ففي حين ترى الفلسفات المادية والوضعية في الإنسان "سيد الكون"، فتحرّر حريته من ضوابط الشريعة الإلهية وأُطر الحلال والحرام الديني، حتى يستطيع -كما في الديمقراطيات الغربية- أن يحرم الحلال ويحلل الحرام إذا هو أراد! فإن الإسلام يرى الإنسان خليفةً لله ﷻ في عمارة هذه الأرض، له حرية وإرادة وقدرة واستطاعة، لكنها حرية الخليفة والنائب والوكيل، المحكومة ببنود عقد وعهد الاستخلاف.

إن حرية الإنسان -وإن بلغت في الإسلام مرتبة الضرورة والفريضة- محكومة بحقوق الله ﷻ التي هي حدود الشريعة ومعالمها وفلسفتها في التشريع. وهنا -وبهذا الاتساق- تكون العبودية لله حرية وتحريرًا، وتكون الحرية والإنسانية ملتزمة بآفاق الشريعة وحدود الله ونطاق العبودية لله الواحد.

ليست الحرية في الإسلام هي تلك التي تحرّم "العيب في الذات الملكية"، بينما تبيح "العيب في الذات الإلهية"! ولا هي تلك التي تجرّم إهانة "علَم الدولة" في ذات الوقت الذي تسمح فيه بإهانة المقدسات الدينية، ولا هي الحرية التي تقدّس "الوضع البشري" على حين تتحلل من "الوضع والتشريع الإلهي"، ولا التي تعلي من شأن "المصلحة" دون ضبطها بالمعايير "الشرعية" لتكون "مصلحة شرعية معتبرة".

إن سيد الكون والوجود هو خالقه، وهو الذي استخلف الإنسان وفطره على الحرية؛ حرية الخليفة المحكومة بحدود شريعة الاستخلاف.

الإكراه يثمر نفاقًا لا إيمانًا

وإذا كان "الإيمان الديني" -والذي هو تصديق بالقلب يبلغ مرتبة اليقين- لا يمكن أن يأتي ثمرة للإكراه: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(هود:٢٨)، لأن الإكراه يثمر "نفاقًا" لا "إيمانًا". فإن الإيمان الديني -في نظر الإسلام- واحد من أهم مقومات الاجتماع البشري، فالحفاظ عليه والحيلولة دون "حرية هدمه" و"إباحة تقويضه"، إلى جانب أنه وفاء بحق الله على الإنسان الذي خلقه ليعبده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، فإنه أيضًا حق من حقوق انتظام الاجتماع البشرية وارتقاء العمران الإنساني.

ولعل في تحلل وانهيار الحضارات والمجتمعات التي جعلت من "المصلحة الدنيوية وحدها"، بل ومن اللذات والشهوات "سقوفًا" وحيدة للحرية، على حين أهملت ضوابط الشرائع الإلهية وحدود الحلال والحرام الديني، ما يزيد الإنسان المسلم استمساكًا بفلسفة الإسلام في الحرية كفريضة إلهية، وواجب شرعي، وضرورة إنسانية يمارسها إنسانٌ مستخلَف لله ﷻ في إطار بنودِ عقد وعهد الاستخلاف.

حقوق الإنسان من منظور إسلامي

وقياسًا على ذلك، تكون الرؤية الإسلامية لكل ما تعارف الناس في الحضارات الأخرى على وضعه في قائمة "حقوق الإنسان":

• الحفاظ على "الحياة" ليس مجرد "حقّ"، وإنما هو فريضة إلهية وتكليف شرعي واجب، ولذلك يأثم المفرّط في الحياة حتى ولو تم التفريط بالاختيار؛ انتحارًا كان هذا التفريط أو قعودًا عن الجهاد في سبيل مقومات الحياة.

• و"العلم" ليس مجرد "حقّ"، وإنما هو فريضة على كل مسلم ومسلمة، يأثم الذي يختار الجهل عليه، وفي بعض التخصصات تصل فرضيته إلى مرتبة الفريضة الكفائية -الاجتماعية- فتأثم الأمة جمعاء إن هي فرّطت فيها حتى

ولو كان التفريط طواعية واختيارًا.

• والمشاركة في "العمل العام" ليست مجرد "حقٍّ"، وإنما هي فريضة تطبيقية لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي فيها جماع تكاليف المشاركة في العمل العام.

ولقد أفردت الحضارة الإسلامية المباحث المستقلة والمطولة في هذه الضرورات؛ من مثل الضرورات الخمس وهي: الحفاظ على الدين، والنفس، والعقل، والنسب والعرض، والمال، وذلك قبل قرون عديدة من المواثيق والإعلانات التي صاغها الآخرون حولها أو حول بعضها كمجرد "حقوق".

لكن الكشف عن هذه الحقيقة يبقى منقوصًا إذا لم ينهض العقل المسلم بصياغة هذه المبادئ والمعالم، في مواثيق مفصلة تقدم الضمانات التي قنّنها الإسلام للإنسان المسلم، ولمطلق الإنسان في سائر ميادين الحياة المعاصرة التي بلغت في التركب والتشعب والتعقيد ما لم تبلغه الحياة الاجتماعية في سالف العصور.

إن العقل المسلم والحركة الإسلامية مُواجهَان بالعديد من التحديات في هذا الميدان.

ما هي "الأشباه والنظائر"؟ وما هي "الفروق" بين فلسفة الإسلام وفلسفات الحضارات الأخرى في "حقوق الإنسان"؟ وأين "الوثائق والإعلانات" التي تصوغ موقف الإسلام في هذه القضية بالتفصيل المعاصر والتقنين الحديث، حتى يرى الإنسان المعاصر في هذا الجانب من جوانب الإسلام، السياج الأوفى بحفظ ما له من ضرورات وحاجيات؟

وأخيراً -وهذا هو الأهم- كيف ومتى سنطبق أحكام الإسلام وفرائضه هذه في الواقع الإسلامي الذي نعيش فيه، وذلك حتى تزول المفارقة الصارخة بين ما ضمنه الإسلام للإنسان من كرامة وتكريم، وبين الواقع الظالم والبائس الذي يعيش فيه هذا الإنسان؟! ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش:

(1) وردت في ذلك أحاديث عدة أخرجها البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه وغيرهم، منها: "لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، ولا يقولن المملوك: ربي وربتي، وليقل فتاي وفتاتي، وسيدي وسيدتي، كلكم مملوكون، والرب الله ﷻ".



أديب إبراهيم الدباغ*

عملك مرآة وجدانك، كيفما تكن سريرتك الجوانية تكن صورة أعمالك البرانية... جميل عملك ينمُّ عن جميل طواياك، وقبيحه ينمُّ عن قبيح طواياك... فشريط حياتك دائرة من أي نقطة تأتيها فإنك تأتي الدائرة كلها... إنْ خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ.

* * *

عودة الروح

يمكن تلخيص فلسفة "فتح الله كولن" الإصلاحية، من خلال قراءتنا لكتبه ومقالاته، واستماعنا لخطبه ومواعظه بكلمة واحدة وهي: سعيه الحثيث لعودة روح الأمة إليها من جديد.

ففي هذا الروح تكمن -كما يرى الأستاذ- بطولات الأمة وعبقرياتها وفتوحاتها في مناحي الفكر والحياة..

ومـن غيـر هذا الـروح تبقـى الأمة فـي ضياع، وتظَلُّ واهنةَ النفس، جامدة العقل، جافَّة الوجدان، هزيلة الخيال.. لا تبدع ولا تبتكر، تطلعاتها متواضعة، وآمالهـا قميئة، ترضى بالـدُّون، وتقنع بالقليل، لا يحفزها المجهول.. تخاف التحدّيـات، وتخشـى الاقتحامـات، وتتجنّـب التضحيـات، وتَفْـرَق مـن المغامـرات.. فكرهـا بيـن الأفـكار ضحل، وقامتها بين قامات الأمم قزمة، بعيدة عن روح العصر، لا تدرك أبعاده، ولا تفهـم لغته ولا ترى قواه المحركة، وكأنهـا في غيبوبة عن كل ما يحيـط بها، وفي غيابَت جُبٍّ لا يمكن الخروج منه.

فالأستاذ "فتح الله" يستحث هذا الروح العظيم للعودة إلى جسـد الأمـة من جديد، لتـدبَّ بها الحياة تسـرى في عروقها وأعصابها ودمها، وإلاَّ فإنَّ تضحياتها التي قدمتها عَبْرَ القرون السـالفة سـتذهب سـدًى، وتجري متثاقلة إلى متحف التاريخ دون أنْ تجديها نفعًا.

فانـدلاع شـعلة الـروح سـاطعةً كاشـفة، هي التـي تحرك الأدمغـة الكبيرة لكي تسـتولد من الأفكار مـا يدفع الأمة إلى اعتمادها في شق طريقها الحضاري الجديد.

فهـذا الـروح إذا ما عاد ليسـتقرَّ في فكر الأمـة ووجدانها وثقافتهـا، فإنهـا سـتكون قويـة بما فيـه الكفاية علـى مقاومة مخاطر التردي والهبوط التي تهدد وجودها من كل جانب.

ومـن جانب آخر يرى الأسـتاذ "فتـح الله" أنَّ منجم الأمة العظيـم هو ذاتها، وهذه "الـذات" تخفي كنوز الأمة متجوهرةً في أبعاد غير مرئية من أغوارها.

فهذه "الذات" هي تشـكيلة أكثر من أربعة عشـرة قرنًا من الزمـن، حيـث كانـت مَصَبًّا هائلاً تصـبُّ فيه الأمة شـؤونها الروحيـة والفكريـة والأخلاقيـة والبطوليـة، فهـذه الذاكرة لا يعتورها النسـيان أبدًا حيـن تريد الأمة الاسـتذكار والاعتبار. لذا صار الكشـف عن "الذات" والحفر عن كنوزها -في رأي الأستاذ- هو أولى درجات الارتقاء في سُلَّم النهوض المرجو. فذات الأمة هي المرآة التي تعكس صورًا من روح الأمة في نضالها الارتقائي عَبْرَ العصور، فالروح والـذات، هـذان المصطلحـان كثيـرًا مـا يأتيـان في كتابـات الأسـتاذ بمعنى واحـد، أو يعبر أحدهما عن الآخر، أو يردف أحدهما الآخر ويقويه ويسـنده.

الـروح إذا عـاد ليحتـلَّ مكانـه الأرفـع من فكـر الأمـة، وصار العمـود الأعظـم مـن أعمـدة ثقافتها، فإنها ستقوى على مقاومة التفكك والانحلال في الثقافات الأخـرى، وستمتلئ ثقة بأنَّ هذا الروح هـو مُدَّخر القدر لصلاح الأمم وإنقاذهـا مـن مفاسدهـا.

فالروح إذا عاد ليحتلَّ مكانه الأرفع مـن فكر الأمة، وصـار العمود الأعظم مـن أعمـدة ثقافتهـا، فإنهـا سـتقوى علـى مقاومـة التفـكك والانحلال في الثقافـات الأخرى، وسـتمتلئ ثقة بأنَّ هـذا الـروح هـو مُدَّخر القـدر لصلاح الأمم وإنقاذها من مفاسدها.

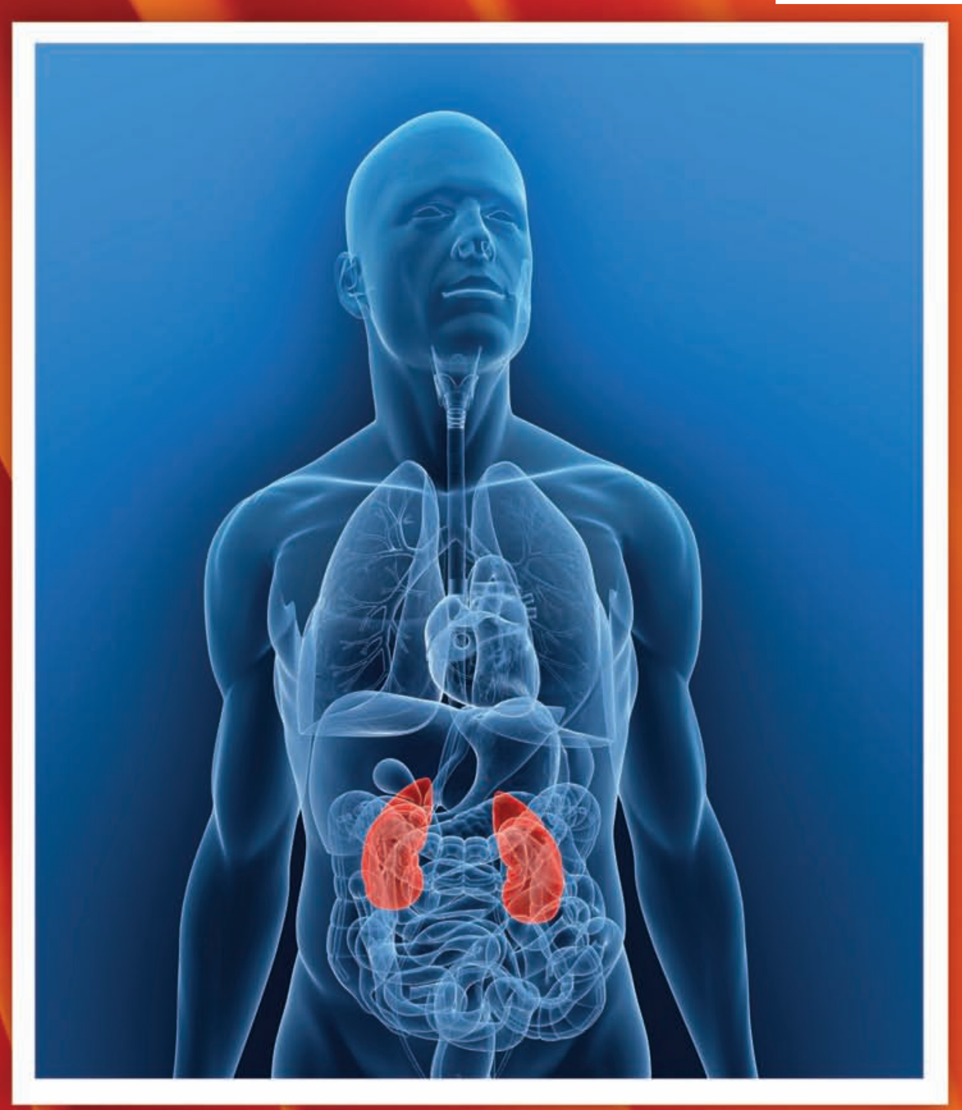
فالتعـرف على هذه الأمة بتميزهـا، وبعلاماتها الفارقة بين الأمم، يتم من خلال استكناه ذاتها، وهذا الاستكناه يظل ناقصًا من دون التعرف على روحها الذي يمدُّ هذه الذات بالخصب والحياة. فـ"الذات" و"الروح" كلاهما يسـتعصيان على عوادي الزمـن، فلا تسـتطيع الأزمان والأحقـاب أن تغيرهما أو تزيد عليهمـا أو تنقـص منهمـا، وهـذا هـو سـرّ إخفـاق كثيـر من المحاولات في إحداث تصدعات وشـروخات ذات أثر كبير فـي روح الأمة وفي ذاتها، على الرغـم من معاول الهدم التي لـم تتوقـف منذ عُرِفَ ديـن هذه الأمة، وعُرِفَـتْ الأمة بدينها.

فالتنكـر لهذيـن الأصلين من أصـول الأمـة ومجافاتهما، إنمـا هـو محاولة لنفي الأمـة بعيدًا خـارج سـياقها التاريخي والإصلاحي، والحكم على مصيرها بالدمار والهلاك.. فهذان الأصـلان همـا المفتاحان اللـذان يفتحان أبـواب الأفكار في عقـل هـذه الأمة، وبدونهما تظلُّ تحدق فـي عين الخطر دون أن تفعل شيئًا لتجاوزه.

وقد يكون الإعياء الذي نهك الأمة خلال مآسي عصورها، سـببًا في انهيار عزيمتها وإقدامها ولامبالياتها، وهذا هو الذي كان يـؤرق الأسـتاذ "فتـح الله"، ويعمـل على علاجـه كما هو مشاهد في منظومة فكره. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

أ.د. عرفان يلماز*



أنا كُلْية عبد الله

عزيـزي عبد الله.. أنا "الكلية" عضو من الأعضاء الضرورية لحياتك، أعيش في منطقة الخصر من جسمك، مُحاطة بحماية جيدة، ومَرْبوطة بشكل متينٍ إلى الظهر عن يمين عمودك الفقري ويساره.

الكُلَى وإزالة السموم

أنا أهم جهاز أساسـي للتصفية والتفريغ في نظام المنشـآت الصحية التي تعيش في المعمل الـذي تدعوه "جسـمًا". فمن خلال عمـل صديقي "القلب" ينتقل الغذاء والأوكسـجين إلى جميع أعضائك، ومن الطاقة التي تحصل عليها من هذا الغذاء تُسـدُّ الحاجة الصغرى التي تحتاجها جميع أعضائك وأعمالك اليومية.

فهل فكرتَ يومًا أن لهذه النشـاطات الرائعة التي تجري في جسـمك من أجل الحصول

على الطاقة؛ فضلات أو فحمًا ناجمًا عن حرق هذا الحجم من الغذاء؟! فلذلك تحتاج إلى تنظيف جسمك وطرح الفضلات المتجمعة فيها، تمامًا مثل احتياجك إلى طرح الفحم الناجم في موقدك الذي تستعمله في التدفئة عن طريق المدخنة، واحتياجك إلى تنظيفه من بقايا الحرق بين الحين والحين، وإلا فلن تستطيع استخدام موقد ممتلئ بالرماد. فبينما تنْفُثُ غاز ثاني أكسيد الكربون الناجم عن حرق الغذاء الذي نقلته إلى جسمك عن طريق رئتيك، تستطيع أن تطرح من جسمك الفضلات النتروجينية (الأزوتية) السامة عندما تتجاوز حدًّا معينًا من خلال العمل الصامت الذي تقوم به أجهزة الفلترة التي أملكها. فينبغي أن تعرف أني جهاز ينقذك من الموت من خلال تصفية دمك من المواد السامة.

ولا أكتفي بطرح الفضلات، بل أعمل أيضًا في الإشراف على المستوى الدقيق للماء والسكر والأحماض الأمينية (الأمينوسيت) والأملاح المتعددة الضرورية في تأمين التوازن الداخلي لجسمك.. أنا باختصار، مختبر صغير ولكنه "حياتي مهم" كالكبد الذي يعتبر مختبرًا كبيرًا.

أنشطة الكيمياء الحيوية في الجسم

يعتبر التوازن "الحمضي-القلوي" في الدم، ومستوى الماء في الجسم، وكميات الأملاح المختلفة، مقادير مهمة تتعلق بنشاط الجسم كله، وعند وقوع أي خلل فيها، يبدأ الاضطراب بالظهور في أقسام مختلفة من محرك الجسم. ولذلك أعمل دائمًا ودون أن تدري، على معايرة مستوى السوائل والأملاح المتعددة، وفق البرنامج الذي وضعه ربُّنا الذي خلقني بشكل حسّاس دقيق وأودعني في جسمك. فعمل أنشطة الكيمياء الحيوية في جسمك يتطلب وسطًا مائعًا، علاوةً على أن أعمالاً أخرى كتقلص العضلات وقدرة الأعصاب في التنبيه الكهربائي، يعتمد على ملْعقةِ شاي صغيرة -ربما لا تلقي لها بالاً- من الملح.

وآثار البقع البيضاء التي يخلفها جفاف العَرَق في قميصك في يوم حارٍّ، أو عقب جَرْيٍ طويلٍ؛ ما هي إلا الأملاح التي فقدْتَها من جسمك، والأملاح التي تُطرَح مع الأغذية عندما تكون مصابًا بالإسهال سببٌ آخر لفقدان الأملاح من جسمك، ويكون هذا الفقدان للأملاح في حالة الإسهال خطيرًا، لا سيما عند الأطفال.

الكُلَى وتبادل السوائل بين الأنسجة والدماء

إن الفروق في الكثافة والتركيز بين البروتينات والماء في توازنٍ معينٍ بينهما، يشكل أساسًا لتبادلِ الموادّ بين السوائل الموجودة في الأنسجة والدماء، فإذا ارتفع منسوب المياه، تنتفخ الأنسجة في جسمك. ويمكنك تمييز ذلك من خلال الضغط بأطراف أصابعك على القسم السفلي من رجلك عند قصبة الساق، إذ تتشكل حفرة عند الضغط بها، فإن لم تعد الحفرة للامتلاء بسرعة، فهذا يعني أن هناك مشكلةً في مستوى البروتينات والسوائل.

من وظائف الكُلَى مراقبة الدم

عزيزي عبد الله.. لعلك بدأت تشعر بالثقل في رأسك، لكني لم أنته بعدُ من تعداد وظائفي، وربما تظن أني أبالغ كثيرًا إذا ذكرتها كلَّها، فلابد لي أن أحدثك على الأقل عن وظيفةٍ أخرى، حيث يظن الناس بسبب جهلهم بوظيفتي هذه، بأني عضوٌ لطرح الفضلات فقط، مع أن الله حمّلني وظيفةً لا يمكن أن تتخيَّلَها.

تُرى ما هي هذه الوظيفة؟! إنها وظيفة مراقبة الدم! تَمَلَّكتك الحيرةُ أليس كذلك؟! نعم، فأنا باعتباري كليةً، أفرِز هرمونًا لتنبيه مصانع الدم في عظامك. وهذا الهرمون الذي يدعى "إريثروبويتين"، ينبه مراكز إنتاج الدم فتقوم بإنتاج خلايا الدم. وأنا مضطرة إلى التزام التوازن الدقيق في إنتاج هذا الهرمون إلى درجة تفوق الخيال.. فأنا يقِظة دومًا، وإذا فقدتَ -لسببٍ ما- دَمًا، فإنه يتوجب عليَّ أن أزيد من إنتاج هذا الهرمون لأُسرّع به إنتاج خلايا الدم، وإذا أخذتَ دَمًا من الخارج عن طريق النقلِ، فإني أتوقف مؤقتًا عن إنتاج الهرمون ليتوقف إنتاج الدم، حتى إذا بدأت كريَّات الحمر بالتناقص بسبب شيخوخة خلايا الدم وموتها، فإني أعود من جديد إلى إنتاج هذا الهرمون.

بنية الكُلَى

وهكذا يا عبد الله، أكون قد حدثتك عن بعض وظائفي الأساسية فقط، غير أني لم أحدثك عن الطريقة التي أؤدي بها هذه الأعمال، ولا عن صنعتي الفنية الرائعة.. فاسمح لي أن أبيِّن لك بنائي المعجز الخارق.. طولي في المتوسط (١٢سم)، وعرضي (٧سم)، وسمكي (٢,٥سم)، ووزني (١٤٥ج) على شكل حبة الفاصوليا، وفي النساء أكون أخف بمقدار (١٠ج).

جسمي طريٌّ ولكني محاط بغشاء حافظ متين.

وكما أن الجيش يتكون من آلاف الجنود يجتمعون للتدريب من أجل هدف مشترك، فإني في الحقيقة مُرَكّبٌ يتشكل من آلاف الجنود مثل هذا الجيش ولست جهازًا بسيطًا، وجنودي هؤلاء الذين يقومون بوظيفتي، هم وحدات الكُلْيون (النيفرون)، وهي وحداتي الأساسية التي تقوم بالعمل، وما أنا سوى كتلة ظهرت في الميدان من تجمعها، ومن تجمع مليونٍ واحدٍ من وحدات "الكليون" العاملة تتكون الكلية.. وباعتبار أنك تملك كليتين فهذا يعني وجود مليونين من وحدات "الكليون" تؤدي الوظائف التي سبق ذكرها وفق الأوامر التي تتلقاها.

الكُلْيون.. وصفه وعمله

يمكنني أن أصف لك "الكُلْيون" بأنه عبارة عن قناة دقيقة ذي نهاية مغلقة بطول يتراوح بين (٣-٥ سم). يتسع هذا الطرف المغلق من قسمه الأمامي ليأخذ شكل كبسولة مؤلفة من طبقتين تدعى "محفظة بومان"، تدخل فيها الأوعية الدموية الشعرية التي تدعى "الكُبَيْبات" (Glomerulus)، وهذه الشبكة من الأوعية الدموية تتشكل من تفرع وريدي الكلوي الذي يحمل إليَّ الدم إلى فروع كثيرة فتمد لكل كليونٍ ذراعًا.. ولأن ضغط الدم في الوعاء الشعري أعلى من ضغط السائل في محفظة بومان، تندفع المواد الضارة في الدم إلى المحفظة، وتتقدم على طول قُنَيَّتِها.

البول الحقيقي.. حجمه ومقداره

وبينما تجتاز (١,٢ لتر) في الدقيقة و(١٨٠٠ لتر) في اليوم من الدم من قُنَيّاتي التي تدعى "كليونات"، تنتقل المواد السامة مع الماء إلى هذه القنيات. وبينما يجتاز هذا الحجم الكبير للدم -الذي يبلغ ٤٠٠ ضعف من الحجم الكلي الموجود في جسمك- ليعود من جديد إلى الأوردة، يترك في قنياتي (١٨٠ لترًا) من السوائل، وكان ينتظر أن تطرح (١٨٠ لترًا) من البول في اليوم، لأن هذه الكمية هي التي تتصفى من الدم وتنتقل إلى قنياتي كل يوم.

فهل كنت تستطيع أن تشرب الماء وتتناول الملح لو أنك طرحت هذا المقدار من البول كل يوم؟ لذلك فإن ربّنا الذي خلقني بحكمته وقدرته، قد أشفق عليك وزرع فيَّ أجهزة امتصاص تقوم بامتصاص (١٧٨,٥ لتر، من أصل ١٨٠ لتر)، فيتكاثف البول وعندها يمكن أن تطرح جميع الفضلات الآزوتية (النتروجينية) بمقدارٍ قليلٍ من الماء. وهكذا أعيد إليك المواد المفيدة بطرحي (١,٥ لتر) من البول فقط.

والمكان الذي يجري فيه عمل الامتصاص هو التواء على شكل "u" في وسط القنيات يدعى "مقبض هنلي". ينتشر حول مقبض هنلي شبكة واسعة من الأوعية الدموية تعاد من خلالها المواد الممتصة إلى الدم، ويتم امتصاص المواد السائلة من الأوعية الدموية هذه من جديد في قناة أكبر (هرم كلوي) تحوي الكثير من الكليونات، ثم يتم تنقيطها في حوض الكلية (ويدعى: الحويضة، وتتشكل من فراغ واسع وسط الكلية) فيمتلئ، ثم تنتقل هذه المواد السائلة عبر القناة البولية إلى المثانة (الكيس البولي). وفي المثانة عندما تبلغ كمية البول مستوى معينًا وتضغط على الجدران، يتم الإحساس بالحاجة إلى التبول، وبارتخاء العضلة المقلِّصة في الطرف السفلي للمثانة يطرح البول إلى الخارج.

لا يستطيع معظم الناس تقدير قيمة أعضائهم

عزيز عبد الله.. باستثناء أصحاب العلم العميق، لا يستطيع معظم الناس تقدير قيمة أعضائهم قبل أن يمرضوا، ولذلك ينبغي عليك أن تقرأ كثيرًا، وتزور المستشفيات بين الحين والحين، والمقابر كذلك. زُرْ مريضًا -مثلاً- في المستشفى ينام في قسم أمراض الكُلَى، أو مريضًا يتابع المستشفى كل أسبوع من أجل غسيل الكُلَى واسأله عن أحواله، عندها تعرف قيمة كُليتيك بشكل أفضل. وإياك أن تنسى أولئك المرضى الذين يضطرون إلى تنقية دمائهم كلها من خلال تمريرها من أجهزة غسيل الكُلَى، بسبب فشلها المزمن وعدم تمكّنها من القيام بوظيفتها، ويستيقظون كل صباح وينتظرون التليفون في لهفة "تُرى هل وُجدتْ كليةٌ مناسبة تصلح لنقلها إليَّ؟".

أسباب الفشل الكلوي

عندما ذكرتُ الكُلَى المزمنة، تذكرتُ يا عبد الله أسبابًا كثيرة يمكنها أن تفتح الطريق إلى تخريبي. فالإنتانات البولية طويلة الأمد، وبعض الأدوية التي تُستخدم لفترة طويلة، وبعض المواد كالأسيتون، وغليكول الإيتيلين، ورابع كلوريد الكربون، والزئبق والرصاص، واليورانيوم، والفقدان الكثير للدم، وارتفاع ضغط الدم، والحروق الشديدة، وعدم ملائمة الدم المنقول، يمكن أن يكون كل واحدٍ منها سببًا لفسادٍ لا

يمكـن معـه إصلاحي. ربما يمكـن لي أن أتماثل للشـفاء في بعض حالات الفشـل الكلوي والتي تحدث فجأة، عن طريق الأدويـة، ولكنـه بالإهمال يمكـن أن أدخل بسـهولة في حالة الفشل الكلوي المزمن.

توجد حالة أخرى تسبّب لي المتاعب، هي تكوُّن الحصى التي تسـبب لي آلامًا شديدةً في داخلي نتيجة الاضطراب في عمليـات الاسـتقلاب المختلفـة. وعلى العموم، فإنه بسـبب نقصان مسـتوى السـوائل في الجسـم أو تكاثف الأملاح عند اضطراب التوازن الحساس بينهما، تتجمع المواد المنحلة في السـوائل مشـكلة الحصى. وبينما تعرقل هذه الحصى جريان البول يمكنها أيضًا أن تكون سببًا لإنتاناتٍ حادة.

كيف تقلل من مخاطر تشكل الحصى؟

وحتى تتجنب هذه الحصى يمكنك أن تكثر من شـرب الماء، فتعيقَ تراكم الأملاح، والأهم من ذلك أن تتجنب حبس البول إلـى درجة الانزعـاج، وحاول دومًا أن تتبـول قاعدًا لا قائمًا، فتؤمـن بذلـك فراغ المثانة بشـكل جيّـد، وتقلل مـن مخاطر تشكل الحصى.

يمكنني العمل على مسـاعدتك في البقاء على قيد الحياة حتـى أفقـد ٩٠٪ مـن طاقتـي. فعندمـا يتوقف جـزء كبير من أجزائـي عن العمل، يزيد القسـم السـليم المتبقي من نشـاطه ليسـد الفجـوة الحاصلـة، وفي حالـة اسـتئصال أختي أحمل أعباءها بنفسي دون شكوى، إلا أنني أتضخم قليلاً وأزيد من سرعتي. وتركيب البول الذي أنتجه يتوقف على ما هو موجود في جسـمك، كتركيب العسل الذي ينتجه النحل يتوقف على أنواع رحيق الزهور المختلفة التي يجمعها، أو كالجرة يرشـح منها إلى الخارج ما تحويه بداخلها.

لذلك فإن تركيب البول الذي أنتجه مهم جدًّا في تشخيص أي مـرض، لأنهـا تُعبّر عن أمـور كثيرة تخص جسـمك. فأنا -علـى سـبيل المثـال- لا أضع في تركيب البـول الذي أنتجه مـواد قيّمة كالجليكوز والبروتين، بـل أعيده بالامتصاص من جديـد إلى الدم، ولكن عند مرضى السـكري يظهر الجليكوز في البول، لأني لا أستطيع القيام بهذا العمل عندهم كما ينبغي.

كمـا أننـي لا أتدخـل في بعـض المواد طالمـا هي ضمن حـدود معينة لم تتجاوزهـا، لأن الدم يحتاج إلى مقادير معينة منهـا، فـإذا بدأت تتجـاوز حدودها المقدرة فإنـي أعمل فورًا علـى تصفية هذا الفائـض منها، وأضيفها إلى البـول، كالبولة (يوريـا) وحمض اليوريك، فلو زادت هاتان المادتان -لا قدر الله- ولم أستطع أن أصفّي هذه الزيادة وأطرحها، فستكون في مصيبـة، أما أدويتهمـا فإني أطرحهما فورًا مهمـا كان المقدار ضئيلاً، لأنهما غريبان عني.

وصايا للحفاظ على سلامة الكُلَى

لا زلـت شـابًّا يـا عبـد الله.. ولكـن وصيتـي لـك أن تحفـظ خاصرتيـك من البرد، وخاصة في الشـتاء، لُـفّ هذه المنطقة واحفظهـا جيـدًا، وينبغي أن تعلم أنك إن لـم تلتزم بوصيتي، وبردتْ خاصِرتاك ومرضتُ، أسبب لك مصائب كثيرة.

ووصيتي الأخيرة لك؛ غدًا عندما تتزوج ويصبح لك أولاد، فانتبـه إلى البنـات وأوْصِ زوجتك أن تعلّم ابنتكم جيدًا كيف تطهّر نفسـها بعد البراز. تريد أن تعرف السـبب أليس كذلك؟

إن المسـالك البوليـة للأطفـال الذكـور، تكـون مخفيـة ومحفوظة أكثر منها عند البنات ولا تلتقط الالتهابات بسهولة، لكن المسـالك البولية عند البنـات باعتبار بنيتها مفتوحة على الالتهابـات، فينبغـي عنـد الحدث الأكبر (البـول والغائط) أن يجـري التطهيـر عند البنـات من الأمـام إلى الخلـف، لا من الخلف إلى الأمام، وبذلك تكون المسالك البولية محميَّةً من التلوث بالجراثيم.

عزيزي عبد الله.. كان يمكنني أن أحدثك عن نفسي بأكثر من هذا، غير أن الوقت ضيقٌ، فقدّمتُ لك بعض الصور حتى تعـرف من خلالهـا البدائع الإلهية التي أودعهـا الله فِيَّ عندما خلقني. أتمنى أن تكون قد علمتَ جيدًا واستقرَّ في عقلك أنه لا يمكن أن يكون صُدْفةً، النشـاطُ الذي تقوم به خليةٌ واحدةٌ مني. وأعتقد أنك قد علمتَ أيضًا أن الله ﷻ الذي خلقني في هذا الكمال، لابد أنه يعلم التفاصيل الدقيقة لأعضاء جسمك عضوًا عضوًا، حتى تمكنت من العمل في انسـجام تام معها.. ولو لم يكن هذا الانسجام لقمت -ربما- بأنشطة تصطدم مع عمل الكبد أو البنكرياس أو غير ذلك من أعضائك الأخرى.

هـا أنـا ذا يـا عبـد الله.. أثرٌ مـن آثـار القـدرة الإلهية غير المتناهية، فإياك أن تنسـى الشـكر لخالقي الذي سـخرني من أجل خدمتك. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

أ.د. أحمد عبادي*

كلما توسّعت دعوتك، وكثرتْ عليها القلوب، وحامتْ حولها الأرواح... امتحنتك الأقدار، لا بالأعداء فحسب، بل حتى بالأحباب والخلّان، لتنظر أتصبر وتحتسب وفي طريقك تمضي وعلى شيءٍ لا تلوي، أم تتوقف وتتراجع وإلى الوراء تعود يائسًا محبطًا مهزومًا مهمومًا.

* * *

القِبْلة

إن اتباع الوحي في المجال الكوني، يتم طوعًا وتقديرًا فيحل فيه الهداية. ومن هنا، فإن الكائنات الكونية تتمكن -ابتداء- من السجود الكلي الذي لا استثناء فيه، ولذلك لم يحصل في سجود الكائنات استثناء -غير الإنسان- في آية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(الحج:١٨){س}، إذ إن هذه الكائنات -بسبب التقدير والهداية- تخلق معروفة الوظيفة، طائعة لوحي التسخير الذي معها، فتكون تلك الطاعة سجودها ويكون التسخر وجهتها في سجودها نحو القبلة النهائية التي هي الله جَلَّ جَلَالُهُ.

وهذا مؤداه -ولغياب حمل الأمانة- انعدام حيرة البحث عن الوجهة والقبلة في المجال الكوني، بخلاف المجال الإنساني، حيث أمانة إعمال الوحي والعمل به إراديًّا، كدحًا ومكابدة، وحيث الاختيار مما يترتب عليه أن الإنسان يولد

على الفطرة/الدمغة/الصبغة الأصلية والتقويم الأحسن.

وتلك مقومات القدرة على الاهتداء بالوحي للتعرف على الوجهة والقبلة وتحقيق السجود/الاندراج في موكب الساجدين، مع إمكان التنكب عن هذا الوحي واللجّ في الطغيان/فقدان التوازن. ولذلك يولد الإنسان غير معروف المصير، ويولد غير معروف الوجهة، ويولد قادرًا على التزكي أو التدسي، ويولد بمقعدين؛ أحدهما في الجنة والآخر في النار.

قال الراغب الأصفهاني: "القبلة في الأصل؛ اسم للحالة التي عليها القابل، نحو: الجِلسة والقعدة. وفي التعارف صار اسمًا للمكان المقابل المتوجه إليه للصلاة".

وقال الزبيدي: "والقبلة في الأصل؛ الجهة، يقال: ما لكلامه قبلة، أي: جهة، وأين قبلتك: أين جهتك، والقبلة: الكعبة، وكل ما يستقبل: قبلة.

وقال ابن فارس: "والقبلة للمسجد، سميت بذلك لأن الناس يُقبلون عليها في صلاتهم وهي كذلك".

تقول الدكتورة منى أبو الفضل: "وكما يشد البناء بعضه بعضًا، فإن بين الشعائر وسائر الدين نفس الوشائج. فليس ثمة توحيد إذا انتهى مظهره في الشعائر، ويثير ذلك قضية التطابق بين الشكل والمضمون على مستوى آخر.

ومرة أخرى نجد الترابط أوثق ما يكون باعتباره ثمرة لعقيدة متماسكة متناسقة تستمد قوتها من كنهها، وليس من مجرد إطارها الوضعي أو ظرفها التاريخي الذي قد يبرز دلالة هذا الكنه دون أن يصنعه.

ولننظر إلى التفاعل بين الجماعة والعقيدة في منظار الجدلية من خلال دلالات هذا التطابق. ولنأخذ من بعض شعائر الصلاة والحج نماذج توضيحية. فماذا عن حكمة التوجه إلى القبلة ونحن نعلم جيدًا أنه: ﴿وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:١١٥)، وأن من صفاته تعالى الهيمنة والوجود في كل زمان ومكان ومن كل جهة، وأن التحديد بمكان معين لا يكون لغير الأجساد أو الكيانات التي تحددها الأبعاد المحددة، ومن ثم تكون النسبية زمانًا ومكانًا.

القبلة في الصلاة هي توحيد منتظم ومستمر للتوجه عند الجماعة يتحقق معه التطابق الأمثل بين الشكل والمضمون فيصير الحق عبر التوحيد بؤرة استقطاب لقلب المؤمن، وهو محور تركيز وجذب معنوي في محور رأسي في لحظة صلة بين العبد وربه.

حول البيت العتيق يتجلى التوحيد ووحدة الأمة

أما الله العلي العظيم، فهو مطلق لا ينحسر وجوده مكانًا ولا زمانًا، أما القبلة في الصلاة فهي توحيد للوجهة، والتوجه عند الجماعة في رتابة وتكرار -بصفة منتظمة ومستمرة- حتى يتحقق التطابق الأمثل بين الشكل والمضمون، فيصير الحق عبر التوحيد بؤرة استقطاب لقلب المؤمن، وهو محور تركيز وجذب معنوي في محور رأسي في لحظة صلة بين العبد وربه.

ولكن في نفس لحظة الامتثال هذه إذا بالتماثل يسود صفوف العباد وينتظم إيقاع حركاتهم، وهي نفس الحركات والأفعال التي تسري عليها قوانين الزمان والمكان، وتصبح القبلة واجهة استقبال لأفعال المؤمنين وبؤرة جذب وجاذبية، وتشد حولها جماعة المصلين وتوصلهم بعضهم ببعض من خلال وصلهم بها. فالصلاة التي تربط بين العبد وربه.. وتوصل الأمة ببعضها من خلال الشعائر التي تطابق المضمون والجوهر الذي تكرسه.

ومن استقبال الوجهة إلى الإقبال على الموضع، نجد أن الدور المحوري للكعبة المشرفة -بيت الله العتيق- لا يقتصر على تجسيدها لحقيقة التوحيد والوحدانية، ولكنه يمتد إلى ما تؤديه من تعزيز وحدة الأمة في شكل مادي محسوس على مشهد مَن بصر من خذلته بصيرته، يتبلور بصورة جلية في الطواف. هنا نلمس عن قرب ويقين الدلالة الاستقطابية لهذه العملية، حيث تشد الكعبة إليها وتجمع حولها أفواج الطائفين، تمامًا كما تشد الشموس الكواكب التي تطوف حولها في نفس اتجاه الطواف المخالف لاتجاه عقارب الساعة.. وفي هذه اللحظة تتجلى حقيقة التوحيد كقيمة عليا في الوجود، لا يُقتصر على تكريسها جبرًا بفعل القواعد الكونية الذاتية، وإنما يرتقي الإنسان المؤمن العبد إلى إدراكها والإقرار بها والعمل لها طواعية.. وفي هذه اللحظة -لحظة الطواف- يتحقق الإدراك الإدماجي، عندما تلتقي الإرادات الواعية العاملة حول هذه الحقيقة العليا، وهي في سعيها الدائب في الحياة الدنيا لا تنقطع قط عن وحدة الوجهة والحق محورًا.

في هذه اللحظة، يكون الإنسان قد حقق أسمى وأعرق ارتباط للجماعة الإنسانية في شكل "الأمة"، ذلك الكيان الجماعي الذي تمثلت حيويته المتدفقة المتجددة في تلك الحركة الدائبة في مدار الطواف الذي لا ينقطع، وإذا كانت حيوية الكيان لا تستفاد من سكونه، وإنما من دأب المسعى تتأكد الحقيقة الوجودية العليا، وتصير الأمة القطب الوعاء البشري الذي ينفرد بين الكيانات الجماعية قاطبة في الجمع بين الخواص الاستقطابية والإدماجية، التي من خلال دفع جدلية تشد إليها وتجذب أفواجًا تلتف بها وحولها، والتي من خلال اتساق أصولها التكوينية والحيوية مع قواعد التركيب والحركة الكونية تختص دون غيرها من الجماعات، بوظيفة تاريخية عليا في تحقيق التئام الإنسان ببيئته وإعادة دمج البشرية في رحمها الكوني. وعندئذ يتحقق سلم الباطن وسلم الظاهر... وتصبح الأمة القطب، هي الوعاء المتاح والذي لا بديل له لتحقيق المثل العليا المفتقدة في العالمية الراهنة".[1]

إن هذا الاختلاف بين الإنسان وبين بقية المخلوقات، والمتمثل في عدم وجود العلاقة الحتمية بين الحركة والقبلة، اختلاف جوهري تعجز عن إبصاره -فضلاً عن تفسيره- النظريات والفلسفات أحادية البعد.

إنه اختلاف يجعل من كل حركة من حركات الإنسان حركة ثنائية الإمكان، تعكس حالة نفسه ومستوى التزكية أو التدسية الذي صارت عليه بعد ولادتها.

هنا يصبح العمل عنوان حالة النفس، ويصبح هو المحرك لها، فهي كما عُرّفت عُرفَت، إلى درجة يمكن معها اختزال الإنسان في عمله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۞ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(هود:٤٥-٤٦). إن كل حركة -بإطلاق- تتطلب وجهة، لكن أية وجهة؟ وهذا بالضبط ما عبرت عنه زفرة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام التواقة حين اكتشف ضرورة هداية الله إلى الوجهة، وإلا فإنه الضلال، والذي لا يعدو أن يكون اضطرابًا حركيًا في غياب رؤية الوجهة الصحيحة.

إن عظمة هذا التوق الإبراهيمي، تتمثل في تبصره بمنبع القبلة: ﴿يَهْدِنِي رَبِّي﴾(الأنعام:٧٧) قبلة كل حركة: الله،[2] وإن عظمة ملاحظة إبراهيم تؤدي -برحمة الله وفضله- إلى تبوئه مكان البيت وجعله الباني لأول بيت وُضع للناس، البيت الذي يمثل القبلة المدربة للإنسان صلاة وطوافًا وتمثلاً على رفعه تحدي الحياة الأكبر: عدم تغير قبلة حركته بتغير موقعه، وهذا الذي يبرز التنبيه إليه بجلاء في سورة الأنعام: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۞ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ۞ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام:٧٠-٧٩)، ثم تختم سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۞ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الأنعام:١٦١-١٦٥). وهكذا ما يبرز قدرة الإسلام الباهرة على تمكين الإنسان فردًا وأمة من قبلة للحركة غير متناهية: ﴿كَلَّا لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾(العلق:١٩){س}.[3]

موكب الساجدين

إن الرصد الشامل لتاريخ العمران البشري -إذا كان لنا أن نستعير لفظ العلامة المسلم ابن خلدون- يمكننا من اختزاله في محاولة الإنسان الدائمة لرفع تحدي حيرة قرن الحركة بوجهتها نحو القبلة في حياته الفردية والجماعية. ويتبين بجلاء أنه كلما تنكب عن الوحي، انزلق نحو قطب الرهبنة المفقدة للقدرة على الفعل في العالم، أو نحو قطب التكاثر المؤدي إلى الغرق في العالم، والمردي في سجن الأشياء: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾(الليل:١١).

إن انسلاك الإنسان في موكب الساجدين -وعلى حد تعبير د. منى أبو الفضل- "عودة البشرية إلى رحمها الكوني" أمر لا يمكن -ألبتة- بدون الوحي، فكما أن أمر الكون لا ينصلح بدون الوحي، فكذلك أمر الإنسان -فردًا وجماعة- لا ينصلح بدون الوحي، مما يفرض الوحي في المجالين؛ الكوني والإنساني باعتباره ضرورة ليس بعدها إلا الدمار.

فإعمال الوحي في المجال البشري ليس فيه جانب الامتثال فقط، وإنما فيه أيضًا اجتناب الدمار في الدارين الأولى والآخرة، وتحصيل السعادتين فيهما. وقد كان دأب الأنبياء جميعهم، هو إحلال الوحي وإعماله في المجال البشري، لينسلك الناس اختيارًا في موكب الساجدين.

وهذا بالضبط مناط الخلافة، فآيات الخلافة من سورة البقرة تختم بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة:٣٨-٣٩). مما يبرز مركزية الوحي/الهدى في المجال البشري، وأن اتباعه يحقق الأمن/توق إبراهيم الدائم:[٤] ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾(الأنعام:٨١).

وجدير بالملاحظة، أن اتباع الهدى وتحقيق السجود في المجال البشري بحسب ما أَلْمحنا إليه آنفًا، مشروع كلي[٥] بدأ مع نزول آدم ﷺ وسوف يستمر إلى قيام الساعة، وأنه قد وصل إلى عنفوانه وكماله المنهجيين مع محمد بن عبد

في لحظة الطواف تتجلى حقيقة التوحيد كقيمة عليا في الوجود يرتقي الإنسان المؤمن إلى إدراكها والعمل لها طواعية ومن خلالها تنفرد أمة الإسلام بين سائر الأمم بتحقيق مهمة إعادة دمج البشرية في رحمها الكوني وتحقيق سلم الباطن وسلم الظاهر.

الله ﷺ رسول الناس الذي ختمت به النبوة ونقلت معه المسؤولية إلى الأمة الشهيدة على الناس.

من بيت المقدس إلى بيت الناس

لقد شكّل حدث تغيير القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، تحولاً هامًّا وحاسمًا في مسار النبوة، وإن من أقرب دلالات هذا الحدث العظيم، نقل الرسالة من بني إسرائيل، بما ظلموا وكانوا يعتدون على الناس.

ولئن ارتضت قبائل قريش أن يبسط ﷺ رداءه لنقْل الحجر الأسود؛ قصد أن يأخذ كل رئيس قبيلة بطرف منه، فيكون له ولقبيلته من ورائه شرف حمل الحجر الأسود ونقله، فكان حكمه ﷺ حكم القبائل جميعًا؛ فإن تحويله ﷺ القبلة بأمر الله من بيت المقدس/قبلة الآل، نحو بيت الناس/قبلة الناس، حكم عدل قد ارتضاه الناس جميعًا، قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۞ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾(الشورى:١٥-١٦).

قال ابن القيم رحمه الله في معرض كلامه عن هذه الآيات: "أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يدعو إلى دينه الذي شرعه لأنبيائه، وأن يستقيم كما أمره ربه، وحذّره من اتباع أهواء المتفرقين، وأمره أن يؤمن بكل ما أنزله الله من الكتب، وهذه حال المحقق؛ أن يؤمن بكل ما جمعه من الحق على لسان أي طائفة كانت، ثم أمره بالعدل بينهم، وهذا يعمّ العدل في الأقوال والأفعال والآراء والمحاكمات كلها، فنصبه ربه ومرسله للعدل بين الأمم، فهكذا وارثه".

فلا شك أن حكم الأمين ﷺ هو العدل في حمل الحجر وفي تحويل القبلة كما في غيرهما.. قال الشوكاني في فتح القدير: "﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في أحكام الله إذا ترافعتم إليّ، ولا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه الله أو بنقصان منه.. والظاهر أن الآية عامة في كل شيء.. والمعنى: أمرت لأعدل بينكم في كل شيء".

فقبل مرحلة الناس سبقت مرحلة الآل: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(آل عمران:٣٣-٣٤)، وهي مرحلة كان ينظر فيها إلى الرب سبحانه في حدود الآل.. ففي معرض الحديث عن تحويل القبلة يقول تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة:١٣٣).. إلى أن يقول تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(البقرة:١٣٤)، ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(البقرة:١٤٢)، ويقول تعالى على لسان يوسف عليه السلام في معرض حديثه مع صاحبي سجنه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾(يوسف:٣٨) في مرحلة الناس، الرب: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَهِ النَّاسِ﴾(الناس:١-٣)، والرسول رسول الناس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(الأعراف:١٥٨)، والبيت بيت الناس: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٦)، والكتاب كتاب الناس: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾(البقرة:١٨٥).

يُنتبه إلى أن آيات العدل -سالفة الذكر- قد جاءت في سورة الشورى -والشورى لا تتم بدون تعارف، والتعارف من شرطه تكامل الوجهات حول القبلة- وفي مفتتحها جاء قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الشورى:٧)، قال الزبيدي في شرح "حول": "الإحاطة من كل وجه... كل جزء من الجرم المحيط".

غير أن ما حول أم القرى في مرحلة الناس -التي مهد لها إبراهيم عليه السلام والذي بُوِّئَ مكان بيت الناس، فرفع القواعد منه هو وابنه إسماعيل- ليست علاقته بأم القرى -التي ما كان لها أن تكون أصلاً لولا البيت- فقط علاقة تقبل جامد/ستاتيكي للنُّذُر من خلال الدعوة في وجهها العطائي الباث، بل هي أيضًا علاقة تقبل متحرك/ديناميكي من خلال التلبية بالاستجابة للأذان بالصلاة خمس مرات في اليوم، وإرسال المُهَج نحو البيت، وكذا من خلال التلبية بالاستجابة للأذان بالحج وإرسال فلذات الأكباد مع الهدي نحو البيت: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۞ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(الحج:٢٦-٢٧).

وفي مناسبة نزول قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾(الشورى:١٦) أخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال: "قال أهل الكتاب لأصحاب محمد ﷺ نحن أولى بالله منكم، فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ﴾ يعني أهل الكتاب مما جعلهم برفضهم الدخول في مرحلة الناس، يترددون من مفضلين على العالمين -ولطبيعة المرحلة- إلى: ﴿السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾"(البقرة:١٤٢-١٤٣). ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش:

(١) الأمة القطب، للدكتورة منى أبو الفضل، ص:٢٦. وقارن بـ"الحج"، للشريعتي: تأملات في شعائره، ترجمة: ليلى باختيار، ص:٧٦.

(٢) ولذلك يشرع للمصلي في دعاء الاستفتاح وهو واقف للصلاة متجهًا نحو القبلة أن يقول: "وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين" (وراه مسلم)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم: ٧٧١.

(٣) قال د. علي شريعتي: "إن الكعبة لا تعدو كونها آية/علامة حتى لا يُضَل عن الطريق، إنها لا تعدو كونها سهمًا يؤشر لك على الوجهة نحو الخلود والأزل نحو الله. فالكعبة ليست بحال نهاية الطريق، إنها بدايته. إنها نهاية عجزك وموتك وتوقفك، لأن ما هو موجود في هذه الربي هو الحرطة مقرونة بالوجهة ولا شيء غير ذلك. إنها الربي التي شهدت الميثاق، إنها الربي التي يتم فيها اللقاء بالله، وبإبراهيم عليه السلام نبي الإسلام والناس. وأنت، كلما بقيت أنت، فإنك ستكون غائبًا هنا..". الحج، ص:٧٦.

(٤) يلاحظ في القرآن المجيد في مواقع الحديث عن إبراهيم عليه السلام هاجس الأمن، إذ يبرز هذا المصطلح في سياقات كلامه عليه السلام المختلفة. انظر: الأنعام، ٨١-٨٢، وإبراهيم، ٣٥.

(٥) نستخدم هنا عبارة "المشروع الكلي" نظرًا لأن مشروع إعمال الوحي في المجال البشري يستغرق كل طاقة الإنسان فردًا وجماعة، حاضرًا وماضيًا ومستقبلاً، كما يستغرق الكون المسخر كله.

قصة

أ.د. محمد بن موسى باباعمي*

إذا ذهب الكسل مع الإنسان قال له الذلّ خذني معك، وإذا ألقى بنفسه في أحضان الراحة قال له الحرمان دعني أكن إلى جانبك... من أَلِفَ الراحة ذلَّ، ومن عاش مع الكسل ماتت همته وقلّ حياؤه، وللآخرين مدّ يده.

* * *



صاحبة الدَّين

طرقتْ الباب بهدوءٍ وحياء، كأنها مترددة متوجسة، تنتظر القَدر الكريم يُعينها... ففتحت البابَ ربَّةُ البيت، وإذا أَمَة لله قُدَّامها، تظلّلها غمامةٌ من الكفاف، وتلألأت في محياها هالةٌ من العفاف...

الطارقة: السلام عليكِ ورحمة الله، أختي الكريمة.

ربة البيت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، مرحبًا.

الطارقة: معذرةً، جئتكِ قاصدةً فلا تردّني، ظننتُ فيكِ خيرًا، فلا تخيّبي ظنّي...

ربة البيت: إني فاعلةٌ -بحول الله- ما استطعتُ إليه سبيلاً، وحسبي قول الكريم المنّان: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾.

الطارقة: علينا أنا وزوجي ديونٌ، لم أجد وسيلةً لسدادها إلا في العمل منظّفة في بيتٍ، أو صائنة لدرَج عمارةٍ، فهلاَّ قبلتِ أن أكون خادمةً عندكِ، ولكِ مني الثناءُ والدعاء، ومن الله الأجر والجزاء.

ربة البيت: لكن، هلاَّ صنتِ كرامتكِ، وتركتِ زوجك يتدبر الأمر، فلعله يكون الأقدر على ذلك.

الطارقة: أعان الله زوجي وتقبّل منه، فقد بذل جهدًا، وشاء الله تعالى أن يخسر في تجارته، ثم خاب ظنّه وانكسر خاطرُه وليس له إلاّيَ رفدًا ومعينًا.

ربة البيت: كم هي ديونك؟ وفيمَ كانت هذه الديون؟

الطارقة: عذرًا، لا تحرجيني، فلستُ أبغي أن يحرمني الله الأجرَ والمثوبة، وليس لي في الدنيا ملاذٌ إلا بابه، ولا مطلبٌ إلا معيته.

ربة البيت: طيّب، لا عليك سامِحني، ليس ذلك مقصدي..

مرحبًا بـك.. مِن السـاعة أنت أختـي ومعينتي والشـادَّةُ على أزري.. أعِدُك أنك بإذن الله في صون وحصن وأمان.

عملـت "الطارقـة صاحبةُ الدَّين" ما شـاء الله لها أن تعمل، بصبـر وإخـلاص، ومصابرة وتفـانٍ، ولم يصدر منهـا يومًا أنَّة ولا آهة، ولا تحسُّـر ولا تذمُّر... فمـلأتْ ربوع البيت بركاتٍ سـماوية وأنوارًا ملائكية إلـى أن أتمَّت الأجل وحصلت على ما تريد من مال يكفيها لسداد دينها.

وجـاء يـوم الـوداع، فقالت ربـة البيت: "بـورك لكِ وفيك وفيمـن ربَّـاكِ وأدَّبـك... وجزاك عـن الدِّين وعـن الملة خير الجـزاء، فقد كنتِ نعـمَ المعين، ولك من المولـى أجر مفرِّج الكرَب.. اللهم اكتبها في عبادك المحسنين.. يا رب العالمين".

بدموعٍ سـخينةٍ منهمـرة رقراقة تمّت مراسـيمُ الوداع، هُما قلبان على الحسن والإحسان تلاقَيا... فانطلقت الطارقة بعيدًا.. بعيدًا.. إلى أن قاربت الاختفاء.. فلحقت بها ربة البيت مهرولة وقالت: "معذرة، هلاَّ أخبرتني فيمَ ديْنك، وقد أبلغَكِ الله مُنيتك؟"

الطارقة: نعم، أمَّا الآن فنعم..

صمتَت طويلاً، ثم أطرقت وقالت: "لقد نذرتُ أنا وزوجي أن نتكفَّل بنفقات طالبٍ للعلم، لا نعرفه ولا يعرفنا، في موكب الـ"هِمَّـة"، "خدمة للإيمان والقـرآن"، راجين العونَ من الملك الديان.. فكان ما قصصتُ لك من أمر الخسـارة، ولم نشـأ أن نُحرم أجر نذرِنا؛ ولكنَّ الله هداني إليكِ بفضله، وهداك لقبول طلبي بمنّه. وها نحن اليوم سعداءُ فرحون، مهلّلون شاكرون.. أن بلَّغَنا اللهُ مقصدنا ولم يخيّب أملنا.. والحقُّ أقول: لقد كنتُ ولا أزال أردّد -مطلع كل شمس- الحديثَ القدسي الشريف: "أنا عند ظنّ عبدي بي، فليظنَّ بي ما شاء".. وها أنا اليوم أشهد نفحاته النورانيةَ عين اليقين، بعدما كنت أعلمها علم اليقين...".

لم تقدر ربة البيت أن تنبس ببنت شفة، كأن الخبر العجيب نزل عليها صاعقة، وهي تقيس -في قرارة نفسِـها- همَّتها إلى همَّة الطارقة صاحبةِ الدَّين!

ولـم يطُـل المشـهد كثيرًا حتـى ودَّعتها صاحبـة الدَّين.. وهنالـك فـي أفـق الملائكـة اسـتقر ظلُّها، وهـو يـردّد مقولة الحكيـم: "أما الأعمال المتوجّهة لرضـا الله تعالى وحده، فإن الـذرّة الواحـدة منهـا تعادل الشـمس، والقطـرة الواحدة منها تعادل البحار، واللحظة الواحدة منها بقيمة الأبد". ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.



رامي الورود

شُدَّ وَتَرَ قوسك،
وألْقِمْهُ الورود،
وانثر الزهر النضير،
وعطِّر الجوَّ بالنفحات،
وضمخ الأنسام بالعبير،
لكي ينعم الزمان والمكان،
بالبهجة والابتسام...

* * *

د. إدريس نغش الجابري*



الحضارة الإسلامية والتكامل في بنية التفكير العلمي

لا يمكن الغفلة عن واقعة أساسية، وهي أن القفزة العلمية الجديدة التي شهدها العالم الإسلامي القديم، إنما حدثت نتيجة لتغيير حضاري شامل أحدثه الإسلام في البيئة العربية أولاً والبيئات التي فتحها المسلمون ثانيًا. ويترتب على ذلك أن تلاحظ أهمية الوحي في تأسيس عقلية منهجية جديدة. إن العقلية الإسلامية التي قدمت لتاريخ العلوم إضافات نوعية نظريًا ومنهجيًا، قد تشكلت بفضل الوحي أولاً، فعن الوحي (القرآن والسنة) صدرت الصياغة المنهجية العقلية للمعارف العلمية في لحظة التأسيس وهي: علوم الوحي (التفسير والأصول والحديث)، وعلوم الآلة (اللغة والنحو)، وعلوم الحال (الرياضيات، الفزياء)، وانبثقت طرق الاستدلال بالتبع عن هذه الصياغة المنهجية الخاصة. وهكذا يتجلى التكامل العلمي (أو الشمولية) في بنية التفكير العلمي الإسلامي في جوانب تجمعها الخطاطة التالية:

قد يرد على هذه الخطاطة اعتراض من قبل كثير ممن استهانوا بخصوصية العلم الإسلامي، وزعموا أن العلماء العرب والمسلمين أخذوا علومهم عن اليونان والفرس والهنود، واكتفوا بالشرح والتعليق. ولكن الحقيقة أن المسلمين أخذوا بالفعل عن باقي الحضارات، غير أنهم

أخضعوا ما أخذوه إلى منهج ينبع من عقلانية جهوية خاصة.

إن التكامل إذن، جوهر لا عرض طارئ على العقلانية الإسلامية الأصيلة، فالعقل الذي تشكل ابتداء من الوحي كان العلم الدقيق كالطب والحساب داخلاً في أركانه. لنأخذ علم الحساب مثلاً. اعتبره بعض الفقهاء من أركان الدين، قال الفقيه المتفنن ابن هيدور التادلي الفاسي:

"واعلم أن الحساب ركن من أركان الدين؛ به تؤخذ القبلة، وأوقات الصلاة، وبه حساب الأعوام والشهور والأيام، وجري الشمس في البروج، وحركات الكواكب، وحلول القمر في المنازل، ومعرفة الساعات النهارية والليلية. وأكثر مسائل العلم الشرعية يدخل فيها الحساب لا من العبادات ولا من غيرها، كالزكاة مثلاً... والتصرف أيضًا في الغنائم في الجهاد، وتعيين الخمس والأربعة أخماس، وقسمة ذلك على الغانمين. وكقسمة أيمان القسامة على أولياء الدم عند طلب القصاص، ومسائل القراض، والمساقاة والإجارة والتفليس...إلى غير ذلك من الأحكام الشرعية. فأكثر المسائل الفقهية يدخلها العدد. وكفى بالحساب جلالة وشرفًا أنه صفة من صفات الكمال، إذ اتصف به الجليل ﷻ بإضافته إليه، قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(الأنبياء:٤٧).[١] يترتب ذلك على أمرين:

١- وحدة العقل والنقل: ذلك أن تعارض النص الصريح من الكتاب والسنة مع العقل الصحيح السليم غير متصور أصلاً، بل هو مستحيل كما تقدم.

٢- قدسية الحقيقة العلمية من قدسية الدين نفسه: وهي قدسية تبلورت من جهتين: إحداهما جهة الاشتراك في قيمة العلم، إذ يقع طلب العلم، كيفما كان وحيثما وجد في أعلى درجات العبادة الدينية. فمحراب البحث العلمي لا يقل قدسية عن محراب العبادة الدينية. والثانية جهة الوسيلة المنهجية، إذ دفعت قدسية الأحاديث النبوية علماء الإسلام إلى ضبط المنهجية العلمية في البحث والتنقيب، رواية ودراية، نقلاً ونقدًا، داخل حقل علوم الحديث وخارجه.

إن العقلية الإسلامية التي قدمت لتاريخ العلوم إضافات نوعية نظريًّا ومنهجيًّا، قد تشكلت بفضل الوحي أولاً، فعن الوحي (القرآن والسنة) صدرت الصياغة المنهجية العقلية للمعارف العلمية في لحظة التأسيس.

لقد عممت هذه القدسية على الحقيقة العلمية حيث كانت وكيفما كانت. مما أدى إلى تشارك معرفي عام وتفاعل منهجي خاص بين العلوم الدائرة على الوحي من أصول وحديث وفقه وعقائد من جهة، ثم بينها وبين علوم الطب والصيدلة والرياضيات والفلك من جهة أخرى. وهو ما يؤدي إلى تكامل في الموضوعات والمناهج داخل العلوم الإسلامية.

التكامل في الموضوعات والمناهج

• **الشمول:** فمعناه اتساع دائرة البحث العلمي للنظر في كل الموضوعات الطبيعية والإنسانية، وتوحيد التصور بصدد الغيب. فالمجالات العلمية تتكامل بينها، لأن "الحياة بكل كائناتها ومكوناتها مجال لأداء سعي المسلم، ولذلك فهو مكلف بالسعي بكل طاقته لطلب العلم والمعرفة بشؤون الحياة والكائنات، ومكلف بكل الجدية والإبداع، والسعي بكل الطرق، للتمكن من الوسائل اللازمة لتسخير الحياة والكائنات ورعايتها وإدارتها وتنظيم شؤونها".[٢] صحيح أن البحث في العقائد هو مما لاينبغي التوسع فيه، إلا بقدر ما يوحد تصور المسلمين عن الله والنبوة والأخرويات، ولكن السبب في ذلك يرجع إلى الرغبة في توجيه العقل المسلم نحو التفكير العلمي المنتج. ومن هنا نفهم سبب اعتراض الفقهاء والعلماء على إغراق المتكلمين في الانشغالات الجدلية. فقد كانت تعرقل فعل العقل المنهجي المنتج.

إن التكامل في ميادين المعرفة يتدرج من الخاص إلى العام، فهو يبدأ من تكامل خاص على مستوى المادة العلمية الواحدة، ثم يمضي إلى تكامل عام على مستوى مادتين علميتين؛ كالفقه والأصول... ثم يرتقي إلى تكامل أعم بين جميع المواد العلمية التي تنتمي إلى مجال واسع، مثل الفقه والأصول والحديث والتفسير، ثم يصل إلى حد التكامل بين جميع المجالات العلمية.

• **التنوع:** فمعناه تنويع الأدوات المنهجية المستعملة؛ وهو يترجم التكامل على صعيد الوسائل المعرفية المنهجية.

ويتبين ذلك على مستويين سبق الإلماع إليهما:

أ- وسائل المنهج العلمي: حيث تتنوع الوسائل العلمية في الدراسة وتنفتح على وسائل التجريب (الحس) ووسائل النظر (التدبر)، ووسائل الخبر (النقل). إذ "ما من وسيلة صالحة من وسائل البحث العلمي وطلب المعرفة إلا والعقل المسلم مكلف باستخدامها والإفادة منها في توليد المعرفة والقدرة على الأداء، تستوي في ذلك الوسائل المادية، والمعنوية، والكمية، والكيفية، كما تستوي في ذلك الوسائل الاستقرائية والاستنباطية والعلمية والتجريبية والتنظيرية والتحليلية".[3]

ب- المصدر المنهجي: يعود بالدليل إلى الجهد الشخصي للعالم (تنقيح الأدلة وبناء الاستدلال)، وإلى التوفيق الإلهي وإعانة الله ﷻ مما أعطى للعلم صبغة أخلاقية.

• **الوصل**: وله معنى مزدوج، التداخل والتقريب:

أ-التداخل: فمن أهم مظاهر الشمول التي تدرك بها الحقيقة التكاملية للتراث، هي التداخل الذي حصل بين المعارف والعلوم في الممارسة التراثية، سواء اتخذ هذا التداخل صورة "التراتب" أو صورة "التفاعل" بين العلوم التي نبتت في مجال التداول الإسلامي العربي. يتعلق الأمر إذن، بشدة "Power" التكامل، أي درجة الربط بين مكونات المنهج التي توضح شدته. ومن أهم أنماط شدة التداخل بين العلوم الإسلامية ما يلي:

نمط التناسق: المبني على المصادرة والتسليم بين العلوم. ويسميه البعض بـ"آلية الخدمة"؛ حيث العلوم يخدم بعضها بعضا. ينتج عن ذلك أن العلوم الإسلامية تتداخل فيما بينها، بحيث "يتسلّم" بعضها نتائج بعض لتصبح مسلمات يصح البناء عليها، أو يستعير بعضها آليات منهجية تمكن من حل مسائل بعضها الآخر. ولذا فليس صحيحًا ما يذهب إليه البعض من أن أصول الفقه هو أقرب العلوم التراثية إلى قيام بالمقتضيات النظرية لمجال التداول الإسلامي،[4] إلا جزئيًا. صحيح أنه يصلح أن يكون أحد المناهج الأساسية -لا المنهج الوحيد- لمشروع "فقه الفلسفة" لأن المنهج الأصولي هو عبارة عن نسيج متكامل من الآليات المقررة والأدوات الإجرائية التي وقع استمدادها من علوم كثيرة،[5] كما أنه نموذج علمي لبيان التداخل الداخلي في المعارف الإسلامية، ولكن الدراسة الأرحب لتاريخ العلوم الإسلامية وإبستمولوجيتها يبين مدى التفاعل الذي حصل بين كل المعارف العلمية وبين كل مناهج البحث. ناهيك عن كون المنهجية الأصولية نفسها اقتربت في طريق المتأخرين بالمنهجية المنطقية الصورية والمباحث الجدلية الكلامية التي ابتعدت بها أحيانًا عن القيام بالمقتضيات النظرية لمجال التداول الإسلامي.

نمط التداخل الجزئي: وذلك إذا كان بين العلوم تقاطعات معرفية ومنهجية. فإن انعدمت الفواصل صار التداخل كليًا وكان النمط عبارة عن إدماج، وصار في الغالب أمرًا معيبًا، يدل على ابتلاع علم لآخر أكثر مما يعني تكاملاً في المعرفة. كابتلاع الهم الفقهي أو الكلامي أو غيرهما من الطرق المذهبية للفعل التفسيري.

ب-الوصل أو التقريب أي وصل المنقول بالأصلي: إن نمط التداخل بين العلوم يميز التكامل بما هو صفة للعلائق فيما بينها، أما علاقة العلوم الإسلامية بما نقل إليها من مجالات تداولية أخرى (كالعلوم اليونانية والهندية والفارسية) فإن التكامل هنا يأخذ صفة التتميم، وأهم مظهر له هو "التقريب"، حسب اصطلاح الدكتور طه عبد الرحمن. ومعناه "وصل المعرفة المنقولة بباقي المعارف الأصلية".[6] وفي هذا يقرر طه عبد الرحمن، دعوى أساسية تقول: لا سبيل إلى معرفة الممارسة التراثية بغير الوقوف على التقريب التداولي الذي يتميز عن غيره من طرق معاجلة المنقول، باستناده إلى شرائط مخصوصة يفضي عدم استيفائها إلى الإضرار بوظائف المجال التداولي الإسلامي، فضلاً عن استناده إلى آليات صورية محددة. ■

---

[*] رئيس مركز ابن البناء المراكشي في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية / المغرب.

الهوامش:

[1] التمحيص في شرح التلخيص، لابن هيدور التادلي، مخطوطة الخزانة العامة، رقم:٢٥٢، ج:١، ص:١٣-١٤.

[2] أزمة العقل المسلم، لـ"أبو سليمان، عبد الحميد أحمد، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المقدمة بتاريخ ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص:١٧٨.

[3] أزمة العقل المسلم، ص:١٧٩.

[4] كما نجد عند طه عبد الرحمن في: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، ط:١/١٩٩٤، ص:١٢٥.

[5] فقه الفلسفة، لـ"طه عبد الرحمن": ١- الفلسفة والترجمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط:١/١٩٩٥، ص:٢٠.

[6] تجديد المنهج في تقويم التراث، ص:٢٣٧.



أدب

أ.د. حسن الأمراني*

المنع عطاءٌ

يا عبد تأمل!.. إن لحياتك معنى غير المعنى الذي يظهر لك، وإن للوجود حقيقة وظلالا، فالتمس الحقيقة، ولا تكن من الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾. يسير التائه في البيداء فيشتد به الظمأ ويمسه اللغوب، فيرى جناتٍ وأنهارًا، ويتوهم عصًا منتصبة في الصحراء، يطمع في أن يلقي عليها ثيابه ليقيل، فإذا هي حية تلتهم كل طائر يأوي إليها ليرتاح من وهج الظهيرة، ويقلب الطرف فإذا الجنات سراب بقيعة.. يشتد بك الظمأ، فترى الهلاك رأْي العين..

وتتبين أن ما كنت تظنه جنات تمنحك اللذة، ليس غير أوهام وقبض ريح.. وما اللذة؟ شتان ما بين لذة تورث غصة، ولذة تفتح لك باب السماء.. للمعصية مرارة هي أشد مرارة من العلقم، لا تجدها في لسانك فحسب، بل هي تسري إلى مسامك، وتنغص عليك كل لذة.. وللطاعة حلاوة لا تقاس بها حلاوة.. كلما كابدت عرفت.. انظر إلى ذلك المتسلق جبال الهملايا بحثًا عن قمة إفرست، كم من العناء يكابد، وكم من الوخز يصيبه، وكم يتردد بصره بين السماء والأرض، حتى إذا أدرك القمة تنفس قائلا: يا ألله! لا شيء هو أعلى.

فأي لذة يدركها آنذاك بعد طول عناء؟ فكذلك السائر في طريق النور.. تعترض طريقه الأشواك فتدميه، وتريد مخالب الشهوة العابرة أن تتخطفه فيصبر.. حتى إذا نظر إليك ربك بعين المرحمة امتدت يد إليك تهديك إلى برد وظلال.

قال بعض من رأى: "ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك". وقال: "متى فتح باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء".

المنع عطاء...

تأمل تجده عطاء ما بعده من عطاء. يستعجل الإنسان بدعاء الخير، فإذا تخلف ما أراد إذا هو من القانطين، وما يدري لعل الله ادخر له خيرًا مما سأل، وأعطاه أفضل مما أراد.

هل اطلع أحدنا على الغيب؟ لو اطلعتم على الغيب لوجدتم ما فعل ربكم خيرًا.. هكذا يقول الحبيب. ولو فقُهتَ يا عبد لتبيّن لك، وذلك معنى ما تجده في الحِكم العطائية:

"العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان"

"كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً"

"إنما يؤلمك المنع، لعدم فهمك عن الله فيه"

"متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك".

المنع عطاء...

"ها أنت تشكو السقم، وترى أن جسمك قد رابك بعد صحة.. وحسبك داء أن تصح وتسلما".. تظن الداء منعًا.. منعًا من متاع الصحة.. منعًا من الحركة التي تعودتها.. منعًا من فعل طمحت نفسك إليه.. وما يدريك؟ لعله منع من فعل تظنه خيرًا وهو ليس كذلك.. أما أبصرت العطايا التي فاضت من الداء؟ لقد فتح لك المرض أبوابًا من العطاء، لو تدبرت، ما كانت لتفتح لولاه.. فمن تلك الأبواب باب الصبر.. فاحذر أن تضيعه، وتذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.. ونعمة الصبر كنعمة الشكر، لا يقدّرها إلا أولو الألباب..

ومن تلك الأبواب باب التضرع.. ولنستمع إلى شاعر أدركه الداء فاستحضر حال أيوب ﷺ، فتوجه إلى الله متضرعًا:

شهور طوال وهذي الجراح
تمزّق جنبي مثل المدى
ولا يهدأ الداء عند الصباح
ولا يمسح اللّيل أوجاعه بالردى
ولكنّ أيوب إن صاح صاح:
"لك الحمد، إن الرزايا ندى،
وإنّ الجراح هدايا الحبيب
أضمّ إلى الصّدر باقاتها
هداياك في خافقي لا تغيب،
هداياك مقبولة هاتها"..
أشد جراحي وأهتف بالعائدين:
"ألا فانظروا واحسدوني،
فهذي هدايا حبيبي".

ومن أين لك أن تعرف هذا الباب الوافر العطاء لولا المنع؟ تقف متضرعًا على باب الباري، فتنفتح لك خزائن ما كانت تحلم بها. وإن الغفلة التي قد تكون قرينة السعة، قد تحجب عنك ذلك الباب. فإذا ضاقت اتسع لك الباب لتلج وتغرف من خيرات ظل ممدود، وماء مسكوب..

والباب الثالث هو باب الموعظة. وها أنت تصغي لأيوب وهو يقول: "رب إني ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾".. فتعرف أن الأنبياء وهم أمثل الخلق وأزكاهم وأطهرهم، هم أشد الناس بلاء، والداء بلاء. فتتعلم كيف تجعل من المنع عطاء، ومن الضيق سعة، وكيف تستل النور من الظلمات، والورد من الأشواك، وتدرك من ذلك موعظة نفيسة ما كنت لتدركها لولا المنع.

يمنع عنك ليعطيك. فسبح بحمده بكرة وعشيًّا. ■

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.

د. سعيد الغزاوي*



مركزية الإنسان الكامل

في المشروع الأخلاقي عند النورسي

تستحضر هذه المقالة روح المرحوم فريد الأنصاري الذي وضع بكتابه "مفاتح النور"، مرجعًا مصطلحيًّا لمن يود الولوج إلى عالم الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي؛ حيث يقف عند مصطلح "الإنسانية" لمركزيته في المشروع الإصلاحي عند النورسي، ولتميزه عنده على غيره ممن وقفوا عند مصطلح "الإنسانية" نفسه؛ لأنه كما يقول الأنصاري: "من ألطف ما ورد عن النورسي من خصوصيات اصطلاحية مستنبَطة من مفهوم "الإنسان" كما وجده، بتدبره -رحمه الله- للقرآن الكريم.

وهذا اصطلاح قد لا تجده -بهذا المفهوم- عند غيره، يقول رحمه الله: "ما يُطلق عليه لفظ "الإنسانية" التي هي قصيدة حكيمة منظومة، تعلن إعلانًا لطيفًا جميع تجليات الأسماء الإلهية القدسية".

وأنا أبحث في الفكر النوري حول موضوع الإنسان الذي تنطلق وتمتد الإنسانية منه، عثرت على مرتبة عالية يتبوأها الإنسان في مقامات السمو والاستخلاف التي أوجده الله للوصول إليها، فوقفت عند مصطلح "الإنسان الكامل"، بل وجدت الأنصاري يدعو الباحثين المدققين في المشروع

الأخلاقي عند سعيد النورسي إلى دراسته والتدقيق في صلته بالمشروع الإصلاحي النوري. فهو كما يعرّفه "المسلم البالغ مقام الولاية، بخوضه بحر المعرفة القدسية القائمة على الإيمان التحقيقي".

إنه تعريف نوري يعترف الأنصاري بتركيبه من عدة نصوص من أقوال سعيد النورسي، ومنها قوله: "للوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل، وذلك بالتوجه القلبي إلى الله طوال سيره وسلوكه، وأثناء معاناته الروحية التي تسمو بحياته المعنوية، أي الوصول إلى مرتبة المؤمن الحق والمسلم الصادق، أي نيل حقيقة الإيمان والإسلام لا صورتيهما، ثم أن يكون الإنسان عبدًا خالصًا لرب العالمين وموضع خطابه الجليل وممثلاً عن الكائنات من جهة، ووليًّا لله وخليلاً له، حتى كأنه مرآة لتجلياته سبحانه، وفي أحسن تقويم حقًّا فيقيم الحجة على أفضلية بني آدم على الملائكة.. وهكذا يطير بجناحي الإيمان والعمل بالشريعة إلى المقامات العليا، والتطلع من هذه الدنيا إلى السعادة الأبدية بل الدخول فيها".

إنه الإنسان الذي صنعه الله بتدبيره وقدرته، وهيّأه لخلافته في الأرض، وأسجد له الملائكة تكريمًا وتشريفًا، وعلّمه الأسماء كلها، وجهّزه بالسمع والفؤاد والنظر ليشيّد حضارة متوازنة تؤسس الإنسانية وفق منظور متكامل. ولكي يرقى إلى مرتبة الإنسان الكامل هاته، ينبغي العروج من الإيمان التقليدي إلى الإيمان التحقيقي: "فإن للإيمان حقائق غزيرة جدًّا؛ إذ ترتبط حقائق كثيرة لأنوار ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى، ولسائر أركان الإيمان بحقائق الكون، حتى اتفق أهل الحقيقة على أن أجلّ العلوم قاطبة وقمة المعرفة وذروة الكمال الإنساني، إنما هو في الإيمان والمعرفة القدسية السامية المنفصلة والمبرهنة النابعة من الإيمان التحقيقي. نعم إن الإيمان التقليدي معرّض لهجمات الشبهات والأوهام، أما الإيمان التحقيقي فهو أوسع منه وأقوى وأمتن، وله مراتب كثيرة جدًّا".

فإذا تساءلنا عن الآليات التي يقترحها الأستاذ النورسي للرقي بالإنسان من الإيمان التقليدي إلى الإيمان التحقيقي، فإنه يوجّهنا إليها ضمن تصور جديد للطاقات والأحاسيس المذخورة في الإنسان، والتي توجد في داخله ألوف منها، لكنه يدعونا إلى حسن توجيهها حتى تؤدي به إلى الكمال: "فما في فطرة الإنسان من رغبة ملحّة، ومحبة جياشة، وحرص رهيب، وسؤال شديد، وأحاسيس أخرى من أمثال هذه -وهي أحاسيس شديدة وعريقة- إنما وُهبت له ليغنم بها أمورًا أخروية؛ لذا فإن توجيه تلك الأحاسيس وبذلها بشدة نحو أمور دنيوية، إنما يعني إعطاء قيمة الألماس لقطع زجاجية تافهة". ومن الأمثلة العملية لصرف هذه الأحاسيس وتوجيهها نحو تربية سلوكية تعرج بالإنسان نحو الكمال، كما يشرحها الأستاذ النورسي: "إن سببًا من أسباب عدم تأثير نصيحة الناصحين في هذا الزمان هو، أنهم يقولون لسيئي الخُلُق: لا تحسدوا، لا تحرصوا، لا تعاندوا، لا تحبوا الدنيا، بمعنى أنهم يقولون لهم: غيّروا فطرتكم، وهو تكليف لا يطيقونه في الظاهر، ولكن يقولون لهم: اصرفوا وجوه هذه الصفات إلى أمور الخير، غيّروا مجراها، فعندئذ تُجدِي النصيحة، وتؤثر في النفوس، وتكون ضمن نطاق إرادة الإنسان واختياره".

رسالة المشروع الأخلاقي الشمولي

هذا شأن الإنسان عمومًا، أما الإنسان الكامل الموكولة إليه رسالة إنجاز المشروع الأخلاقي الشمولي، فإن أحاسيسه، أي لطائفه -ضمن مرادفات النورسي- يوجّهها نحو المقصود الأساس -وهو عبادة الله- حتى يقترب من كمال الصحابة الكرام: "فالإنسان الكامل هو -كالصحابة الكرام- يسوق جميع تلك اللطائف إلى مقصوده الأساس وهو عبادة الله. فيسوق القلب كالقائد كل لطيفة منها ويوجّهها نحو الحقيقة بطريق عبودية خاص بها، عند ذلك تسير الكثرة الكاثرة من اللطائف جنودًا في ركب عظيم وفي ميدان واسع فسيح، كما هو لدى الصحابة الكرام ﷺ".

وإذا تساءلنا: هل كان تصور النورسي لهذا الإنسان الكامل طوباويًّا متوهمًا، أم كان متحققًا في المجتمع الإنساني؟ يجيبنا بالتدرج من النموذج الأكمل، وهو الرسول الأكرم والدليل الأعظم إلى الله، قد أظهر جميع ما بيّناه من كمالات الإنسان وقيمته ومهمته ومُثُله، فأظهر تلك الكمالات في نفسه وفي دينه، بأوضح صورة وأكملها، مما يدلنا على أن الكائنات مثلما خُلقت لأجل الإنسان، أي أنه المقصود الأعظم من خلقها والمنتخب منها، فإن أجلّ مقصود من خلق الإنسان أيضًا، وأفضل مصطفىً منه، بل أروع وأسطع مرآة للأحد، إنما هو محمد ﷺ.

ثم يعرض نماذج بشرية متحققة في واقعنا المُعَاش، وهم بعد الأنبياء "الصحابة الكرام" هم كُمّل الأولياء، من حيث إنهم فرّغوا كل طاقاتهم لله الواحد الأحد، وكانوا بذلك أعلم الخلق -بعد الأنبياء- بالله ﷻ، وكانوا نماذج الإنسان الكامل.

كما يعرض لإشكالية تحقق هذه النماذج في القرون المتوالية وفق رؤيته الواقعية وتوقيره لجيل الصحابة ﷺ: "حقيقة أن الصحابة الكرام هم كُمّل الأولياء، لقربهم وتتلمذهم على الإنسان الكامل سيدنا محمد ﷺ واستمدادهم من نور القرآن الكريم، لكن هذا النور ساطع ومتيسر للإنسان في كل زمان، لذلك "فإن الأولياء الصالحين والعلماء الأصفياء، هم ثمار استمدت من شجرة القرآن الكريم، فتكاملهم الحيوي يدل على أن شجرتهم المباركة هي ذات حياة وعطاء، وذات فيض دائم وذات حقيقة وأصالة".

وعدة الإنسان للرقي إلى مرتبة الإنسان الكامل، كل جوارحه المخلوقة لعبادة الله؛ إذ "لو كان الإنسان مجرد قلب فقط، لكان عليه أن يترك كل ما سواه تعالى، بل يترك حتى الأسماء والصفات، ويرتبط قلبه بذاته سبحانه. ولكن للإنسان لطائف كثيرة جدًّا كالقلب، منها العقل والروح والسر، كل لطيفة منها مكلفة بوظيفة ومأمورة بالقيام بعمل خاص بها".

المشروع الأخلاقي النوري

وإن كنا نعرض هنا للمشروع الأخلاقي النوري؛ فينبغي التذكير بأنه انتقال منهجي فحسب، وإلا فنحن لم نغادر المفهوم النوري للإنسان الكامل عدة وعماد هذا المشروع، فبسلوكه طريق المعراج القرآني "الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان، ونحن اخترنا هذا الطريق" وبهذا السلوك يترقى الإنسان نحو الإنسان الكامل.

وبآلية المجاهدة الوجدانية الدائمة تتم الصناعة التربوية العميقة للإنسان، كما أشار المرحوم الأنصاري في دراسته "الكونية الأخلاقية بين علوم القرآن وعلوم الإنسان"، فيرشد إلى الإدراك العجيب عند الأستاذ بديع الزمان النورسي إلى ما أدت إليه هذه المجاهدة من عروج الإنسان نحو الكمال، بقيادة راشدة رشيدة للإنسان الكامل سيدنا محمد ﷺ فتحولت "هذه الأقوام المختلفة البدائية في هذه الصحراء الشاسعة، المتعصبون لعاداتهم، المعاندون في عصبيتهم وخصامهم، كيف رفع هذا الشخص جميع أخلاقهم السيئة البدائية وقلعها في زمان قليل دفعة واحدة؟ وجهّزهم بأخلاق حسنة عالية، فصيّرهم معلمي العالم الإنساني وأساتذة الأمم المتمدنة".

فإذا سعينا إلى معالجة مفهوم الأخلاق في مشروع الأستاذ بديع الزمان النورسي، فصلاً يقتضيه المنهج فحسب، فأول ما يسترعي النظر هو فهمه التجديدي للأخلاق بوصفها نظامًا قرآنيًّا. لكن الأنصاري -رحمه الله- استوعب المفهوم الأخلاقي النوري، وميّزه عن حصره عند الآخرين في مجال الفضائل: "فرسالة القرآن إنما جاءت لتصنع مجتمعًا قائمًا على أساس الأخلاق بمعنى كليّ. فكل التصرفات البشرية في العلاقات النفسية والاجتماعية والوجودية مع سائر الكائنات إنما هي "أخلاق". وهذا مفهوم خاص لمعنى "أخلاق" الذي يحصره بعضهم فقط في مجال "الفضائل" بمعناها الاجتماعي الصرف. و"الفضائل" في المعنى السائر المتأثر بالدلالة الفقهية مفهوم موحٍ بنوع من النفل الزائد الذي يفعله الإنسان تطوعًا وهذا معنى فرعي، بينما تصور النورسي للأخلاق قائم على أنها "أصول" لا "فروع"".

وثاني ما يسترعي النظر أنه مفهوم شمولي، لأنه يتدرج في مكونات المشروع الأخلاقي من أعلاها وهي الأخلاق الإلهية فالنبوية فالإنسانية فالوحشية وهي أدناها. ومن هنا نفهم تأكيده على صلتها بالإنسان الذي يوكل إلى الكامل منه أمر القيادة والقدوة كما فعل الأنبياء.

وأما آليات المعراج والترقي بالمجاهدة النفسية الدائمة للإنسان، فتقتضي -منهجيًّا- الترقي من الأدنى إلى الأعلى، لذلك تقترح من النماذج ما تحقق في المجتمع الجاهلي الذي ترقت به القيادة الراشدة لسيدنا محمد ﷺ إلى مجتمع راشد مهيأ للصلاح والإصلاح. أما في مجال المناهج والنظم، فتقترح ما يمثله القرآن الكريم بوصفه نظامًا للأخلاق. لنستمع للأستاذ بديع الزمان النورسي وهو يحيل على شهادة "غوستاف لوبون" في توضيح هذه الخصيصة القرآنية: "إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها، وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق.. إن أهم نتيجة يمكن استنباطها، هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه، فالديانات التي لها من السلطان على النفوس قليلة جدًّا، وقد

لا تجد دينًا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم".

ورغـم اسـتمداد النورسـي مشـروعه الأخلاقي مـن نظام القـرآن العظيم، إلا أنه في تصوره الشـمولي لهذا المشـروع، يُـدرج ما هـو إلهي، وما هو إنسـاني، وما هـو اجتماعي، وما هو وحشـي، ويرسـم معـارج للرقي مـن الأدنى إلـى الأعلى كما سـنعرض لها وفق سلّم الترقي والاقتضاء المنهجي؛ فأما الأخلاق الوحشية الرذيلة فهي رذيلة حسب عبارة بديع الزمان النورسـي؛ لأن "أسّ أساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الإنسـاني، إنما هو كلمة واحدة، كما أن منبع جميع الأخـلاق الرذيلـة كلمـة واحدة أيضًـا.. الكلمـة الأولى: "إن شبعتُ فلا عليَّ أن يموت غيري من الجوع"، والكلمة الثانية: "اكتسب أنتَ، لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا".

نعـم، لا يمكـن العيـش بسـلام ووئـام فـي مجتمـع إلا بالمحافظـة على التوازن القائم بين الخواص والعوام، أي بين الأغنياء والفقراء.

وهـي وحشـية، لأنهـا أخـلاق الجاهليـة التـي كانت عند العـرب بعبارة الأنصاري: "ولأن محمدًا الهاشـمي ﷺ مع أنه أميّ لم يقرأ ولـم يكتب، ومع عدم قوتـه الظاهرة وعدم ميله إلـى تحكم وسـلطنة، قد تشـبث بقلبه بوثـوق واطمئنان -في موقع في غاية الخطر وفي مقام مهم- بأمر عظيم، فغلب على الأفـكار، وتحبب إلى الأرواح، وتسـلط علـى الطبائع، وقلع مـن أعمـاق قلوبهـم، العادات والأخـلاق الوحشـية المألوفة الراسـخة المسـتمرة الكثيرة، ثم غرس فـي موضعها في غاية الإحـكام والقـوة -كأنها اختلطـت بلحمهم ودمهـم- أخلاقًا عاليـة وعادات حسـنة. وقد بدّل قسـاوة قلوب قـوم خامدين في زوايا الوحشـة بحسـيات رقيقة، وأظهر جوهر إنسـانيتهم، ثـم أخرجهم من زوايا النسـيان، ورقى بهـم إلى أوج المدنية، وصيّرهم معلمي عالمهم".

عمليـة توجيـه الأحاسـيس وتحويلها والرقـي بها لتنهض بالإنسان من المستوى الأدنى إلى الإنسان الكامل، هي جوهر هـذه الإشـارة ومثيلاتها عند الأسـتاذ بديع الزمان النورسـي، وهـي التـي حوّلت عرب الجاهلية إلى صحابة رسـول الله ﷺ ليمثلوا أروع نموذج لهذا الإنسان الكامل المتحقق في الواقع المُعَاش، كما أشـار إليها في أكثر من موقع من رسـائل النور.

أما المرتبة التالية في سلّم الترقي الأخلاقي، فهي الأخلاق الاجتماعية التي انتقلت إلى غير المسـلمين؛ "فوا أسـفاه! إنه مثلما انتقلت محاسـننا إلى غير المسلمين، فسجايانا الحميدة هم الذين سرقوها كذلك! وكأن قسمًا من أخلاقنا الاجتماعية السامية لـم يجد رواجًا عندنا، فنفر منا والتجأ إليهم، وإن قسمًا من رذائلهم لم يلقَ رواجًا عندهم فجلب إلى سوق جهالتنا".

ولا يفوتـه التعريض بالسياسـة، فيحمّلها مسـؤولية رواج هذه الأخلاق الاجتماعية حين يقول: "صار الصدق والكذب يعرضـان معًـا فـي معرض واحـد، ويصدران معًـا من مصدر واحـد، ففسـدت الأخـلاق الاجتماعيـة واختلـت موازينهـا، وزادت الدعايات السياسية إخفاء قبح الكذب المرعب، وستر جمال الصدق الباهر".

ثـم نرقى إلى الأخلاق الإنسـانية المشـتركة مع المجتمع الإنسـاني، لأنها -حسب الأنصاري- خصال الفطرة الإنسانية الضروريـة للوصـول إلى الحق يلمح الأسـتاذ النورسـي إلى وجودها وانتساب وتخلّق البشرية بها، لكنها تحتاج إلى التحوّل من الفطرية إلى التسـديد والاستقامة بفضل المنهج الأخلاقي النوري.. لذلك فأيسـر الطرق في الأخلاق الإنسانية، وأنفعها وأقصرها وأسلمها، هي في الصراط المستقيم وفي الاستقامة.

وهـو بهذا التلميح إلى حاجة البشـرية إلى التسـديد، إنما يوجّه الإنسان للرقي إلى أعلى المراتب والغايات في مشروعه الأخلاقي الشـمولي وصولاً إلى الأخـلاق الإلهية؛ إذ "الغاية القصوى للإنسـانية، والوظيفة الأساسـية للبشرية، هي التخلّق بالأخـلاق الإلهيـة، أي التحلّي بالسـجايا السـامية والخصال الحميدة التي يأمر بها الله سـبحانه، وأن يعلم الإنسـان عجزه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفه فيحتمي بقوته تعالى، ويشـاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد مـن غناه تعالى، ويعرف قصوره فيسـتغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبح ويقدس كماله تعالى".

قيام الإنسان الكامل بتشييد المشروع الأخلاقي الإلهي

فالوصول عند معراج التخلق بالأخلاق الإلهية يستدعي متابعة الأسـتاذ بديـع الزمـان النورسـي فـي تأويله لقـول الله تعالى: ﴿إِنَّـا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَا الإِنْسَـانُ إِنَّـهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢). فمن الخزينة العظمى لهذه الآية الجليلة، سنشير إلى جوهرة واحدة من جواهرها، وهي أن الأمانة التي

أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، لها معان عدة ولها وجوه كثيرة. فمعنى من تلك المعاني ووجه من تلك الوجوه هو "أنا". نعم إن "أنا" بذرة نشأت منها شجرة طوبى نورانية عظيمة، وشجرة زقوم رهيبة، تمدان أغصانهما وتنشران فروعهما في أرجاء عالم الإنسان من لدن آدم عليه السلام إلى الوقت الحاضر.

هكذا فالبذرة المنتجة لشجرة طوبى النورانية، هي التي تنتج الإنسان الكامل في أحسن تقويم بوعي وعلم ونفس. فالذي يعرف ماهية "أنا" على هذا الوجه ويذعن له، ثم يعمل وفق ذلك وبمقتضاه، يدخل ضمن بشارة قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾(الشمس:٩)، ويكون قد أدى الأمانة حقها حتى يشيد المشروع الأخلاقي الإلهي. أما البذرة المنتجة لشجرة زقوم الرهيبة، فتنتج الإنسان الظلوم الجهول في أحسن تقويم كذلك، لأنه صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولكن إذا نسي "أنا" حكمة خلقه، ونظر إلى نفسه بالمعنى الاسمي، تاركًا وظيفته الفطرية، معتقدًا بنفسه أنه المالك، فقد خان الأمانة ودخل ضمن النذير الإلهي: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:١٠).

هكذا نقترب من مفهوم الإنسان الكامل المستمد من نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة لاكتساب معناها الكوني، ولتأسيس المشروع الأخلاقي النورسي، متدرجًا من الأخلاق الوحشية فالاجتماعية فالإنسانية وصولاً إلى الأخلاق الإلهية.

عودة إلى الفرضية

نعود إلى الفرضية التي طرحناها في بداية هذه الدراسة بغاية التحقق من صحتها أو دحضها، فنشير إلى صحتها إذا استثمرنا إيحاءات الأستاذ بديع الزمان النورسي بين ثنايا مشروعه الإصلاحي، وتلميحاته إلى أن الإنسان الكامل متحقق في شخصية النبي ﷺ والصحابة الكرام في فترة خير القرون، لكن الاستمداد من نور القرآن الكريم ونظامه الأخلاقي، يؤدي إلى سعي الإنسان في كل زمان، إلى الرقي عبر معراج الانتساب الإيماني من درجة الأخلاق الوحشية إلى الاجتماعية فالإنسانية فالإلهية وصولاً إلى مرتبة الإنسان الكامل.

وأنا أتابع روايتي المرحوم فريد الأنصاري "آخر الفرسان" و"عودة الفرسان" طرحت سؤالاً: ما هي دلالة الآخر في نسبتها إلى المفكر المجدد بديع الزمان النورسي، ودلالة العودة في سيرة محمد فتح الله كولن؟

هل كان -وهو يتأمل في المشروع الإصلاحي النوري- يبحث عن درجة تحقق هذا المشروع؟ وهل توخى تحققًا للإنسان التواق إلى الكمال في هذين النموذجين؟

سؤالان مشروعان لكنهما يقتضيان جوابًا من المرحوم الأنصاري الذي غادرنا وفي صدره شيء من رسائل النور، غادرنا وهو موجّه إهداء الرواية "عودة الفرسان" على الشكل التالي:

"أما هذه الورقات فإنني أهديها لكم أنتم شباب العالم العربي.. عسى أن نبصر موقع الرأس من أمتنا.. فنسلك الاتجاه الصحيح".

إنه إهداء عميق الدلالة لشباب العالم العربي بحثًا عن موقع الرأس من أمتنا، ومن تكون هذه الرأس إن لم تكن كناية عن الإنسان الكامل أو من في الطريق إليه؟!

أختم بالإشارة إلى أننا خلال هذه المقاربة لمفهوم الإنسان الكامل تعمدنا إغفال مفاهيم مجاورة من أمثال الإنسان الحق، والإنسان الكلي، ومقاربة مقارنة لهذا المفهوم عند فلاسفة ومتصوفة آخرين من أمثال الإمام فخر الدين الرازي، والشيخ الأكبر ابن عربي، والشيخ عبد الكريم الجيلي، والشيخ عبد الغني النابلسي، والشيخ محمد بهاء الدين البيطار، والشيخ صدر الدين القونوي، والشيخ كمال الدين القاشاني، والشريف الجرجاني، والشيخ عبد الكريم الجيلي؛ لأننا نسعى في هذا الحوار الأكاديمي حول فكر النورسي، إلى التدقيق في جانبٍ مرجئين النظر في بعض الجوانب الأخرى إلى حوارات أكاديمية مقبلة. حوارات مستنيرة بنور القرآن كما استوعبه واهتدى إليه الأستاذ بديع الزمان النورسي، فاقترح منذ الألفية الثانية الحلول الواقعية الناجعة لما تعانيه الإنسانية من المشاكل والأزمات في هذه الألفية الثالثة. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الحسن الثاني / المغرب.

المراجع:

(١) كليات رسائل النور، لبديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٢) مفاتح النور، لفريد الأنصاري، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٣) عودة الفرسان، لفريد الأنصاري، دار النيل للطباعة والنيشر، القاهرة.

شعر

يحيى بن توفيق بن حسن*



توبة حاج

إليكَ إلهي قد شددْتُ رِحاليا ... وأقبلْتُ في شوقٍ أبثُّك ما بيا

أتيتكَ بعد اليأس أدنو ملبّيًا ... إلى العفوِ ظمآنًا إلى الصفح صاديا

تَمثَّل لي إبليسُ في كل خطوة ... فأشعلَ ليلِي بالهوى ونهاريا

وعوَّدني العصيانَ حتى أَلِفتُه ... وأمسيتُ جهلاً أستبيح المعاصيا

فلما استبدَّ اليأسُ واسْتَحكمَ الهوى ... قصدتُكَ يا مولايَ أطوي الفيافيا

أتيتُ إلى أفياءِ بيتِك علّني ... أُريحُ ضميري من عناءِ شقائيا

فلبّيكَ ربَّ البيت لبّيكَ ما سرى ... إلى البيت عبدٌ من عبيدك عانيًا

بكى خائفًا يوم الحساب وهَوْلَه ... فلم يُجْدِهِ طُولُ البُكا والتباكيا

رأى كلَّ بابٍ غيرَ بابك مُوصَدا ... فآبَ إلى أعتابِ بابِك ثاويا

وأنت الذي لا يرجِعُ المرءُ خائبًا ... إذا جاء ملهوفًا لعفوك راجيا

وأنت الذي تأسو وترحمُ يائسًا ... أتى تائبًا من بعد ما كان عاصيا

(*) شاعر سعودي.

أ.د. عمار جيدل*



دواء فتنة المسلم المتأخر

بغيره المتقدم في فقه ابن باديس

يحسن في مستهل هذا المقال الإشارة إلى ثلاث قضايا رئيسة:

القضية الأولى: يُعَدّ العلامة عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩-١٩٤٠م)، الباعث الروحي لفكرة الاستقلال الحقيقي الذي يتجاوز السعي إلى تحرير المكان، بل يركّز كل جهده على تحرير القلوب والعقول من الاستعباد. فقد جعل الله على يديه تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أسسها الشيخ يوم احتفال فرنسا بالذكرى المئوية لاستعمار الجزائر.

وفي تلك الأجواء، أعلن ابن باديس الحرب على فرنسا الاستعمارية، حتى قال رفيق دربه العلامة محمد البشير الإبراهيمي (١٨٨٩-١٩٦٥م): "لو تأخر ظهور جمعية العلماء عشرين سنة أخرى، لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا".

وتميز أنموذج دعوته بتحديد الخلل بدقة متناهية، فيرى ابن باديس أن القرآن الكريم مازال بين ظهراني المتعبدين، ولكنه قليل الأثر في حياتهم الاجتماعية والتربوية والفكرية، بل وحتى الدينية نفسها.. لهذا تكمن المشكلة في التحول عن أصل ما جعل له القرآن الكريم، وهو جعل مقصد الهدائية أهمّ الغايات التي ينبغي على المسلم استجلاءها والعمل على معرفتها، ثم التحقق بها والعمل بمقتضاها في الحياة.

القضية الثانية: معلوم للمهتمين بعلوم الشريعة الإسلامية، أنّ مصطلح "الفقه" مما خص به علم الشريعة بمعناها الفني المتداول في فضاء هذا العلم، لكننا في هذا السياق نوظّفه بمعنى أوسع؛ فلا نقصد من مصطلح "الفقه" الاصطلاح المتداول في فضاء علوم الشريعة بمعناها الضيق (علم الفروع)،

بـل نروم توظيفه بمعنـى دقة الفهم وفق الدلالـة اللغوية الأصليـة.. وبالتالي فإن مـن مقاصـد هـذا المقـال، استشـفاف بعـض مواطن دقة فهم الإسـلام بوصفه دينًـا حضاريًّا يحث المنتسـبين إليه حقًّا وصدقًا، بالالتزام بأحكام الدين -عقيدة وشريعة وأخلاقًا- المستفادة من الوحي (الكتـاب والسـنة الصحيحة)، مع حثهم بالقوة نفسـها على الاستفادة من الخبرة العلمية لأسـلافهم، ولكنها ليست بديلاً عن الدين، بل خادمة له، وهذه أهم ميزة فـي فقه ابـن باديـس.. فهو مـع مالكيته الظاهـرة ودرسـه العقـدي المميـز عن الحرفيـة ومـا يقابلها في الوقت نفسـه، فقيه اسـتيعاب بالدرجة الأولى بامتياز، يدعو إلى استيعاب مجمل مكونات المجتمع الجزائري على اختلاف درجات التزامهم.

إن المؤمـن وإن كان أهـلاً للسعـادة الأخرويـة، إلا أنـه لا ينـال السعـادة الدنيويـة إلا إذا أخـذ بالأسبـاب الدنيويـة، ذلـك أن قانونـًا واحـدًا يحكـم السعادتين الدنيويـة والأخروية، فكلاهمـا تحكمـه قاعـدة الأخذ بالأسبـاب طريقـًا لتحصيـل المسببـات. لهـذا فالمهمل للأخذ بأسبابهمـا شقـي في الداريـن.

فتنة المسلم المتخلف بغيره المتقدم

القضيـة الثالثـة: تحـاول الوقـوف عند مـرض فتنة المسـلم المتخلـف بغيـره المتقدم، بقصـد تجاوز الفكر غير السـنني، وبالتالي غير العلمي، ولعل رأس تجليات هذه العقلية، انتظار المسـلمين حل مشـاكلهم دون التفكير في الأخذ بالأسـباب لحلها، فيروق للمسـلمين التمتع بالوعـود الإلهية الواردة في القرآن والسنة، من وراثة الأرض والتمكين والغلبة... من غير أن يكلّفوا أنفسهم عناء التساؤل عن مقومات وراثة الأرض.

المتمعّـن في فقه ابن باديس، يمتلـئ قلبه بالإقرار بالثقافة السـننية التي تضبط مسـلكه فـي التفكير والتدبيـر، فليس من منهـج الرجـل صناعة الأوهـام أو تخصيبها، لهـذا تراه مصرًّا على أن يتدبر المسـلم المتعلم بنفسـه من خـلال إجالة نظره فيما يقرأ ويسمع، لينتهي به التدبر إلى تمثّل الدين في شعاب الحيـاة.. ولهذا يريده أن يكون صاحب قراره، ولأجل تيسـير تحقيـق المراد يدعـوه إلى تثمين حال حرية الإرادة التي خلق عليها، إذ أن الحر في إرادته هو الوحيد الذي يستطيع التعلم.

ورام العلامة ابن باديس، التأسيس النظري لفكرة التقدم في الضمير الجمعي للأمة، ولكي لا تكون معالجته وصفة مجرّدة ذكرها مشـفوعة بالشـهادة العملية التطبيقية القابلة للتنفيذ من قبل عموم المكلفين، كل في الفضاء الذي تخوّله له مؤهلاته.

يسـتفاد من أدبيات ابـن باديس، أن فتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم نتيجة وليسـت مقدمة، فالتوقـف الموضوعي يفـرض العناية بتحليـل المقدمات التي أفضت إلى هذه النتيجة، عوض المبالغة في التوقـف عند الظواهـر دون التفكير في أسـبابها. لهذا نكتشـف مـن أدبيات الرجـل، التنبيـه إلى السـؤال المحوري الآتي: ما أسـباب فتنة المسـلم المتأخر بغيره المتقدم؟

١- يسـتفاد مـن فقـه ابـن باديـس قاعدة رئيسـة مفادها "ليـس كل ما جاء مـن المتقـدم تقدّمًا، وليـس كل ما جاء بـه المتخلـف تخلفًـا".. تستشـف هذه القاعـدة مـن تأكيده على أن حال الأمم كحـال الأفراد، فكما يفتتـن الأفـراد بعضهـم ببعض، تفتتـن الأمم بعضهـا ببعض، والأمة الإسلامية كغيرها من الأمم الضعيفة والمتخلفة، فتنت بغيرهـا من أمم الغـرب، والدليل على ذلـك أننا وبالرغم من كوننا ندين بالإسـلام وهو دين السـعادة الدنيوية والأخروية، ولكن حيثما كنا -إلا قليلاً- لسنا سعداء في مظاهر تديننا ولا أحوال دنيانا.. ففي الأولى، نأتي بما يبرأ منه الإسلام ونصرّح بأنـه مـن صميمه، والثانيـة، ترانا في حالة مـن الجهل والفقر والذل والاستعباد يرثي لها الجماد.

والمتمعّن في حال أمتنا من الغربيين ينفر من الإسلام فضلاً عـن أهله، ويجعلونهم موضوعًا للسـخرية، إلا مَن نظر منهم بعيـن العلـم والإنصاف، فإنه يعـرف أن ما نحن عليه هو ضد الإسلام، فكنًّا فتنة عظيمة عليهم وحجابًا كثيفًا لهم عن الإسلام.

ولا شـك أن وقـع الفـارق الكبيـر بيـن الأمة الإسـلامية والغـرب مـن ناحيـة التقـدم المـادي و المعنـوي فـي بعض الأحيـان، أردى ببعضهـم إلـى قبـول الأمالي في كل شـؤون حياتهـم المادية والمعنوية، وهـم يرون أن أمم الغرب في عز وسـيادة، وتقدم علمي وعمراني، والأمة التي شـاعت عندها تلك الأحكام وعضّدتها شـواهد الواقع المعيش، وخاصة إذا اسـتصحبوا واقعهـم الفقير فقـرًا مدقعًا ماديًـا ومعنويًّا (دنيويًّا وأخرويًّا)، فيندفعون إلى تقليدهم في كل شـيء حتى معائبهم ومفاسـدهم، وازدراء كل شيء عندها حتى أعز عزيز، إلا مَن نظـر بعيـن العلم، فعـرف أن كل ما عندهم مـن خير هو عند

الأمة في دينها وتاريخها.. وأن ذلك هو الذي تقدموا وسادوا بـه، وأن ما عندهم من شـر هو شـر على حقيقتـه، وأن ضرره فيهـم هـو ضرره في كل حال، وأنه لا يجـوز أن يتابعوا عليه، فكانوا فتنة للأمة حتى ينظر مَن ينظر بعين الحق للحقائق.

وهكـذا بيّن ابـن باديس أن المحامد موجـودة في الآخر، وانتماؤنـا لخط الإيمان لا يجعلنـا مبرئين من كل عيب، لهذا وجـب التفكيـر قبـل الإفـادة منهم فيمـا يصلح مـن خبرتهم للتوظيف في العصر الراهن.

الأسباب، وسائل المسببات ولو اختلفت الاعتقادات

نتعلـم مـن فقه ابن باديـس قاعدة: "عمـوم النوال مـن الكبير المتعال" المستفادة من قوله تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِـنْ عَطَـاء رَبِّـكَ وَمَا كَانَ عَطَـاء رَبِّكَ مَحْظُـورًا ۞ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَـا بَعْضَهُـمْ عَلَـى بَعْـضٍ وَلَلآخِـرَةُ أَكْبَـرُ دَرَجَـاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٢٠-٢١). ومقتضى هذه القاعدة، أن "الأسباب وسـائل المسـببات ولو اختلفت الاعتقادات"، مسـتدلاًّ بقوله تعالـى: ﴿مَـنْ كَانَ يُرِيـدُ الْحَيَـاةَ الدُّنْيَـا وَزِينَتَهَـا نُـوَفِّ إِلَيْهِـمْ أَعْمَالَهُـمْ فِيهَـا وَهُـمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُـونَ ۞ أُوْلَئِـكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(هـود:١٥-١٦)، وزاد القاعدة شـرحًا بقوله: "الأسـباب الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها، موصلة مَن تمسّك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه بمقتضى أمر الله وتقديره وسنته في نظام هذه الحياة والكون ولو كان ذلك المتمسّك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر".. ويزيد المسألة وضوحًـا بتقرير مقتضيـات إهمال هذه القاعـدة: "فمن أهمل تلك الأسـباب الكونية التقديرية الإلهية ولم يأخذ بها، لم ينل مسـبباتها ولـو كان من المؤمنيـن، وهذا معلوم ومشـاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم".

ومن تجليات تطبيق هذه القاعدة أن المؤمن وإن كان أهلاً للسعادة الأخروية، إلا أنه لا ينال السعادة الدنيوية إلا إذا -وَفَقَطْ إذا- أخـذ بالأسـباب الدنيوية، ذلـك أن قانونًـا واحدًا يحكم السعادتين الدنيوية والأخروية، فكلاهما تحكمه قاعدة الأخذ بالأسـباب طريقًا لتحصيل المسـببات. لهـذا فالمهمل للأخذ بأسـبابهما شـقي في الداريـن، والتارك للأخذ بهـا في إحدى الدارين كان شـقيًّا فيها، سـواء تعلّق الأمر بالدنيا أم بالآخرة.

وبنـاء على ما سـلف، لا صلة للتخلف بالالتـزام بالدين، بـل العكس هو الصحيـح، فإغفال أخذ الأسـباب طريقًا لنيل المسـببات، ميل عن سـنة الله في الخلق، قال ابن باديس: "فلا يفتتن المسـلمون بعد علم هذا ما يرونه من حالهم وحال من لا يديـن بدينهـم، فإنـه لم يكـن تأخرهم لإيمانهـم، بل بترك الأخذ بالأسباب، ولم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم، بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة".

والدليـل أن الأمـة مضـت عليهـا أحقـاب وهـي من أهل السـعادة الدنيوية والأخروية بإيمانهم وأعمالهم، ولما صاروا إلـى تـرك الأسـباب الدنيويـة لضعـف إيمانهم، تولّـد عنه أن سـاءت أعمالهم وكثر إهمالهم، فلا لوم -إذن- إلا عليهم في كل ما يصيبهم، وربك يقضي بالحق وهو الفتاح العليم.

يسـتفاد مـن القاعـدة السـابقة قاعـدة أخـرى مفادهـا، أن "العصيـان لا يمنـع الـرزق"، ويقصـد بـه العصيـان المتعلـق بالتكاليف الشـرعية، أما عصيان سنن الله في الخلق، فلا شك أنهـا مانعـة مـن التنميـة والتقدم، ذلـك أن الله تعالـى لا يمنع كافرًا لكفره أو عاصيًا للتكاليف الشرعية، من أن ينال من هذه الحياة بأسبابها، وما لم يمنعه الله لا يقدر أحد على منعه كائنًا مَن كان. وقد اسـتفاد ابن باديس هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿وَمَـا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسـراء:٢٠)، والحظر: المنع، والمحظـور: الممنوع، وتركيب الآيـة -كما قال ابن باديس- يفيـد أن عطـاء الرب لا يمنـع، لأن من مقتضـى ربوبيته دوام عطائه ومدده لعموم خلقه بعلمه وحكمته.

يكسب الأفراد والأمم والمجتمعات والدول والحضارات مـن الدنيـا بقدر الأخـذ بأسـبابها، لا تخذل القوانيـن الكونية (سـنن الله فـي الخلق) التي تضبط سـير الحيـاة مَن دخلها من أبوابها وفق طريقة سننية.

من تمسّك بالسبب بلغ المسبِّب

٢- لعل من أهم امتدادات القاعدتين السابقتين قاعدة أخرى مفادها، أن "من تمسّـك بالسـبب بلغ المسبِّب". لهذا فأسباب التقـدم في مناحي الحياة، مبذولة لجميع الخلق بصرف النظر عن أديانهم أو ألوانهم أو جنسـياتهم، فمن تمسّـك بسبب بلغ -بإذن الله- إلى مسببه، سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا.

ساد المسـلمون العالَم ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائـع لمـا أخـذوا بأسـبابها كمـا يأمرهـم دينهـم، ولمّـا أهملـوا الأخـذ بهـا تأخروا حتـى كادوا يكونـون دون الأمم كلها فخسروا دنياهم، وخالفوا مرضاة ربهم، وعوقبوا بما هم عليهـم اليوم مـن الذل والانحطاط، بل تراهـم يبذلون الغالي والنفيس للحفاظ على نماذج التخلف.

خسران الدنيا عند العزوف عن سنن الله

وتلك نتيجة سننية لما آل إليه أمر تديّنهم بالمعنى العام، فكان من متطلبات هذا الفهم السقيم، الميل عن فهم سنن الله في الخلق واستجلاب النتائج ببناء المقدمات والسعي إلى تحقيقها في شعاب الحياة.. ومن فَرْط العزوف عن سنن الله في الخلق خسرنا الدنيا، لأننا فيها عالة على غيرنا (المأكل والملبس والمركب والدواء..)، وانتهينا إلى قبول الأمالي في فهم ديننا وتمثّل مبادئه، وبالمختصر المفيد؛ حصدنا ما زرعته أيدينا.

٣- تتجلى القواعد السابقة من الناحية التطبيقية في قاعدة: "التفاضل بين الخلق بحسب فقه الحياة والعمران والاجتماع". فإذا كان التفاضل الأخروي نتيجة سننية للأخذ بأسبابها الجعلية: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَشْكُوراً﴾(الإسراء:١٩)، تشير إليها الآية بالسعي لها، أي بسلوك الطريق المفضي إليها؛ فإن سنن الحياة الدنيوية محكومة مثل الحياة الأخروية بقانون الأسباب، أي من أراد الحياة الدنيا وسعى لها سعيها وفق سنن الله الجعلية فيها، فإنه ينال منها وفق بذله.

المسلم الذي فقه من الحياة أنها تحضير لما بعدها فقط مع ميل ظاهر عن فقه الرؤية الكلية التي تجعل من الحياة مزرعة للآخرة، مال عن العناية بأسباب الظهور في الحياة الدنيا، بالرغم من أن من أهمّ تجليات القوة الدينية وبواعث استقلالها وفعاليتها، القوة الدنيوية.

فيظهر جليًّا أن التفاضل بين البشر والأمم والمجتمعات والدول له أسبابه السننية، ولم يكن أمرًا عبثيًّا أو عقلية خرافية تنتظر أن تقوم قوى غيبية بدلاً عنها أو دونها في عالم الشهادة. فعالم الشهادة له قوانينه وسننه التي تحكمه، وهذا لا يغني على الإطلاق عن حسن التوكل، بل هو عين التوكل، لأنه أخذ بالأسباب. فقد ورد في الحديث عن أنس بن مالك ﷺ قال: "قال رجل يا رسول الله: أَعْقِلُها وأتوكَّل أو أُطْلِقُها وأتوكل قال: اعْقِلْها وتوكلْ" (رواه الترمذي). والمدد الغيبي يناله العاملون الساعون في شعاب الحياة، ولا يناله البطالون والكسالى والعبثيون والعابثون، مثلما لا ينال التقدم من أهمل أسبابه.

> **إن الأمة مضت عليها أحقاب وهي من أهل السعادة الدنيوية والأخروية بإيمانهم وأعمالهم، ولما صاروا إلى ترك الأسباب الدنيوية لضعف إيمانهم، تولّد عنه أن ساءت أعمالهم وكثر إهمالهم، فلا لوم -إذن- إلا عليهم في كل ما يصيبهم، وربك يقضي بالحق وهو الفتاح العليم.**

٤- ليس القصد من القاعدة السابقة، حشو الرؤوس بمعرفة نظرية إضافية، بل القصد منها اكتشاف أسباب التفاضل بين الخلق، والذي يمكن أن يعبّر عنه بقاعدة: "سنن السعادة الدنيوية مَن اكتشفها وعمل بها أبلغته النتائج". ولعل من أعظم العبر ما نشاهده في أحوال الخلق، نرى تمايزًا شديدًا بين الأمم والجماعات والأفراد، فالتفاضل بينهم نتيجة سننية، ذلك أنها نتيجة لفقه أسباب هذا التفضيل، والتي ترجع في أصل وضعها إلى فقه الحياة والعمران والاجتماع، ولهذا أمر تعالى بالنظر في أحوال هذا التفضيل بقوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٢١)، و"كيفَ" سؤال عن الأحوال، والنظر المأمور به هو نظر القلب بالفكرة والاعتبار، وسؤال الكيفيات، سؤال عن الأسباب التي أبلغتهم تلك النتائج المبهرة في التنمية الشاملة.

ومما سلف بيانه، أن السعي إلى نيل السعادتين (الأخروية والدنيوية)، من أهم القضايا التي كانت شغلت ابن باديس، ولهذا أراد من الأمة أن تتعلم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن السعادة الدنيوية كالسعادة الأخروية، لا طريق لها غير السعي لها، ولا يمكن أن تسعى إليها بغير اكتشاف القوانين والسنن التي تحكمها.

يا من تريد نيل المسلمين السعادتين، ولاسيما السعادة الدنيوية؛ أنقل إليك ما ذكره ابن باديس موجّهًا خطابه إلى المسلمين قاطبة: "لن يعود إليكم ما كان لكم، إلا إذا عدتم إلى امتثال أمر ربكم في الأخذ بتلك الأسباب، فهذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء:٢٠) من أنجع الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم، لما فيها من بيان؛ أن المسلم ما تأخر بسبب إسلامه، وأن غيره تقدم بعدم إسلامه، لأن السبب في التقدم والتأخر، هو التمسك أو الترك للأسباب، لو أن المسلم تمسّك بها -كما يأمره الإسلام- لكان -مثل سالف أيامه- سيد الأنام. ■

(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.

أ.د. حسان شمسي باشا*

قالت نملة



في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾(النمل:١٨) لفتات ولفتات...

فعندما جاء سليمان عليه السلام ومعه جنده، أحسّت نملة بالخطر الداهم على قومها وبني جنسها، فصاحت منذرة: إن الخطر قادم، فهيّا أنقذوا أنفسكم: ﴿لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾(النمل:١٨).

ما أروع هذه النملة، وما أعظم هذا الموقف الذي وقفته؛ حملت همّ أمتها، أدركت ثقل مسؤوليتها، أحسّت بقدوم الخطر قبل وصوله، فقامت صائحة معلنة لبني قومها: إن الخطر قادم فهلموا أنقذوا أنفسكم.

لم تهرب هذه النملة وتنقذ نفسها عندما أحسّت بالخطر.. لم تقل: ماذا يمكنني أن أفعل لوحدي أمام هذا الجيش العظيم؟ بل إنها اعتبرت نفسها حارسة أمام قومها وما رضيتْ أن يمسهم أي سوء صغير كان أم كبير.

نعم، نملة كرّست نفسها لحماية أشقائها من الأخطار.. هذا وإن الخطر الذي يهدد أمتنا، أعظم من الخطر الذي هدد نمل سليمان بكثير.. فمَن منّا يحسّ إحساس هذه النملة ويسعى لإنقاذ أمته أو ويتلهّف على حياتها؟ مَن منّا يقوم وينام وهو يحمل هموم هذه الأمة التي يحدق بها الخطر يمنة ويسرة؟ إنه ليس بخطر واحد، بل أخطار من كل صوب: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾(النور:٤٠). هذا من جانب، ومن جانب آخر يقول تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ أي، يستخدم النملة بصيغة النكرة، فلم يقل: "قالت النملة"، إنما قال: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾. إذن هي نكرة.. هل هي الملكة أم غير الملكة؟ المهم

أنها وردت في القرآن بصيغة النكرة. فهي نملة من هذا الوادي الطويل العريض، ومع ذلك لم تحقر نفسها.. أما نحن فلا زلنا نتساءل أنْ؛ ماذا فعل أهل الحل والعقد؟ ماذا فعل فلان وفلان؟ نرمي المسؤولية أو الذنب والأخطاء على عاتق غيرنا، ونحاول أن نبرئ أنفسنا من الأحوال التي أصابت الأمة..

نملة نكرة أنقذتْ أمة... نملة نكرة لا تساوي شيئًا، حملتْ همّ أمتها فأنقذتْها وأخرجتها إلى بر الأمان.. إن هذا الهمّ والشعور بالمسؤولية الذي تشبعتْ به هذه النملة، هو الذي أنزل الرحمة الإلهية، ورفع عن قومها البلاء والمصيبة.

ثم نأتي إلى نقطة أخرى... هل جلستْ هذه النملة تحلل نوايا سليمان، كما يتفلسف البعض في الحديث عن نوايا بعض الأمم؟ هل قالت إن سليمان قد احتقركم، إنكم جند ضعيف فلا يبالي بكم؟ هل جلستْ أو جلس قومها يتساءلون؟ بل إنها لو سكتت لفعلتْ خيرًا... فكيف وقد برّأت سليمان عليه السلام وجنوده، قالت: ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾(النمل:١٨)، أنا لا أتهمهم في نياتهم، مع أنهم سيحطّمونكم، سيقتلونكم، سيقضون عليكم... لكن ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾.

هل قال النمل: أنت تريدين السلطة، تريدين العلوّ، تريدين الشهرة؟.. لا.. بل استجاب النمل ودخلوا مساكنهم ونجوا بدعوة هذه النملة الصغيرة.

ومن خصائص النمل، جدّيتها وصبرها عند بناء بيوتها، حتى إن البيت من بيوت النمل يسقط فتعاود فورًا بناءه مرة أخرى، ثم يسقط فتعاود بناءه مرة ثالثة ورابعة حتى يستقيم البيت...

يذكر المؤرخون أن تيمرلنك -القائد المعروف- هُزم في معركةٍ من المعارك، فتفرَّق الجيش وتشتّت، فما كان من تيمرلنك إلا أن هام على وجهه حزينًا كئيبًا... ذهب إلى إحدى المغارات وجلس فيها يتأمل فيما وصل إليه حال جيشه... وبينما هو مستغرق في تفكيره إذا بنملة تريد أن تصعد على حجرة ملساء، فسقطتْ، حاولت المرة الثانية فسقطتْ، والثالثة فسقطتْ... بدأ يرقب هذا المخلوق الصغير... تابع تيمورلنك النملة حتى صعدتْ في المحاولة السابعة عشرة؛ فقال: والله عجيب!.. نملة تكرر المحاولة قرابة عشرين مرة، وأنا أُهزم وجيشي من المرة الأولى؟! ما أضعفنا وما أحقرنا... نزل من المغارة وصمّم على أن يجمع فلول جيشه، وأن يدخل المعركة، وأن لا ينهزم ما دام فيهم حي واحد، ومنظر



النملة ماثل في رأسه...

جمع قومه وتعاهدوا على دخول المعركة، وعلى ألا ينهزموا ما دام فيهم حي واحد... دخلوا المعركة بهذه النية وبهذا التصميم... فانتصروا في المعركة.

وأجمع علماء الأحياء على أن النملة من أكثر المخلوقات جديةً وحزمًا. فهل رأيت عزيزي القارئ يومًا من الأيام، نملة نائمة في الطريق؟ هل رأيتم يومًا من الأيام نملة واقفة تتفرج؟.. ما ترى النملة إلا جادة في مسيرتها، وجادة في كل حركة من حركاتها.

ونحن أحوج ما نكون لهذه الجديّة؛ نحتاج إليها في طلب علم، في أعمالنا ووظائفنا، وكل أمور حياتنا...

ومن صفات النملة، التعاون... فإذا رأيتم عشرًا من النمل يمشون، فهل ترون كل واحدة تمشي وحدها أم أن النمل يخطُّ خطًّا واحدًا، فتجد عشرين أو ثلاثين نملة أو أكثر قد خطت خطًّا واحدًا مع بعضها البعض:

تأبى الرماحُ إذا اجتمعْنَ تكسُّرًا
وإذا افترقْنَ تَكَسّرتْ آحادًا

أليست هذه دروسًا لنا نستفيد منها؟! فهل من معتبر؟! ■

(*) استشاري أمراض القلب في مستشفى الملك فهد للقوات المسلحة بجدة / المملكة العربية السعودية.

حسين أوزدمير*



سيادة القانون في الدولة العثمانية

تمايزت أنماط الدول منذ العصور القديمة وفقًا لتأثير عوامل الدين والتقاليد والثقافات والجغرافية والاقتصاد وغيرها، ومنذ القرن التاسع عشر بدأت الدول التقليدية كالملَكيّات والسلْطَنات، تترك مكانها للدول البيروقراطية العصرية كالدول الشمولية أو الدول الشعبية المركزية. وأيًّا ما تكون الدول؛ تقليدية أم عصرية، وأيًّا ما تكون أنماطها وأشكالها، فإن سيادة القانون ومبدأ العدالة مقابل المزاجية والظلم، يشكلان دومًا أهمَّ عنصرين حاكمين في إدارة الدول. وفي ما يتعلق بالدولة العثمانية، فقد ظهرت تعريفات وتصنيفات كثيرة لنظامها. فقد عرف بعض الباحثين كـ"فؤاد كوبرولي" وعمر لطفي بَرْقان الدولةَ العثمانيةَ بأنها "دولة علمانية عصرية"، وأن الدساتير (قانون نامة) العثمانية التي تغطي الجوانب القانونية والإدارية للدولة قد وُضعت في ظل مقاربة وفَهْم عصريّيْن.

وعلى النقيض منهما، يُصنف أحمد أَقْ كونْدوز -وهو باحث في الحقوق الإسلامية ومؤلف كتاب الدساتير العثمانية (Osmanlı Kanunnameleri)- الدولةَ العثمانية كدولة إسلامية. فالحقوق العرفية العثمانية عنده، متمِّمة للحقوق الشرعية، وجميع القوانين العثمانية خرجت من مصفاة شرعية لا تخالف الدين. فالخليفة أو السلطان مسؤول أمام الله، ومكلف بالخضوع لأحكام القرآن والسنة.

وهناك مقاربة أخرى تقف بين التقييمين السابقين، وتستند إلى مفهوم صاغه صَدْري مَقْصودي أَرْسال؛ حيث ترى أن نظام الحكم في الدولة العثمانية هو نظام "نصف ثيوقراطي"، وأن معظم الدول الكبرى التي نشأت في تلك الفترة من التاريخ، هي دول نصف ثيوقراطية. فللدين تأثير هام في هذا النمط من أنظمة الحكم، حيث تكون البيروقراطية الدينية وبيروقراطية الحكم في حالة توازن داخل الدولة. ونظام الحكم في الدولة العثمانية يمكن فهمه وتصنيفه في هذا الإطار.

من جهته، يرى "ماكس ويبر" أن أنظمة كافة الدول التي كانت قائمة قبل القرن العشرين الميلادي، هي أنظمة دول تقليدية من الوجهة التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، ويزعم بأنها كانت تقوم على الحكم الملكي الوراثي، ويُقوِّم بالتالي نظام الدولة العثمانية في إطار التصنيف التقليدي، ويعتمد كثير من المؤرخين على وجهة النظر هذه، في مقارباتهم للدولة العثمانية.

شكل ملكي ومضمون ديمقراطي

إن الدولة العثمانية كان لها في الواقع نظام حكمها الخاص بها، وهو الذي يمكن أن نصفه بـ"النمط العثماني". فالسلاطين

العثمانيـون مارسـوا حكمهـم بمـا يملكونـه مـن صلاحيات التشـريع (سـن القوانيـن) والتنفيـذ والقضـاء فـي ظل سـيادة الحقوق والقوانين، ولكن ليس على النمط الملكي المعروف أوروبيًّا فـي ذلـك العهـد. فالعبـارات التـي تضمنتهـا وثائق الحقـوق العرفيـة العثمانيـة -كالحقـوق الإداريـة والحقـوق العسـكرية- وردت في القوانين التي جرى سَنُّها كالنص على أن "تراعى مصالحُ عباد الله على أنها مصالح شرعية وقانونية"، هـذه العبـارات لـم تُهمل أو تتجاهـل الدين، بل شُـرّعت في ظل تكامل بين الحقوق العرفية والحقوق الشرعية، واكتسبت ماهيّتها من هذا التكامل.

ويمكن القول بأن النظام السياسي في هذه الدولة، وإن اتخذ الشكل الملَكيَّ في الحكم، إلا أنه تجلت فيه كل الممارسات التـي نراها في الديموقراطيـات: فكل مواطنٍ يمكنه أن يرتقي إلـى كل مقـام دون مقـام السـلطان، ولـه حقوقـه الكاملة في الشـكوى والتقاضي والتظلم، وتقديم العرائض بمطالبه كلها، كما تجلت في هذا النظام أيضًا، بعض الممارسات الإقطاعية أو الأرسـتقراطية، كالأوقـاف ومـا يشـبهها مـن المؤسسـات التـي كان لهـا تأثيرها الفعال في الحيـاة الاجتماعية في الفترة العثمانية طيلة سـتة قرون. وتسلّطُ بعض الآغوات والبيكوات فـي مرحلـة التأسـيس، وبعـض الأعيـان والـولاة فـي عهود التخلف للدولة، وقدرتهم على التأثير في نظام الحكم، يمكن أن يُنظر إليها كممارسـات إقطاعية ظهرت في مراحل ضعف السلطة المركزية. وهذا ما يجعلنا نمنح بعض الحق لمن يقيّم بنية الدولة على أنها نصف ثيوقراطية، لأن دخول البيروقراطية الدينية ضمن المكونات الأعم التي شكلت بيروقراطية النظام مـن خلال الخدمات العلمية كالحقوق والتعليم وما يشـبهها، والصلاحيـات المطلقة للقضاة في القضاء.. كل ذلك يبدو لنا تجسيدًا لنظام نصف ثيوقراطي.

وإذا كان ينبغـي تقويـم مـا ورد أعـلاه مـن التصنيفـات والتعريفات للدولة العثمانية في ضوء الوثائق، فإن هذه الدولة لا ينطبق عليها بشـكل تام، أي نمـط من أنماط أنظمة الحكم الواردة أعلاه بشـكل تام، فينبغي تحليل "النمط العثماني" في الحكم، انطلاقًا من مقاربات كثيرة كالدين والحقوق والتاريخ والسياسة وغيرها.

ونتنـاول بالبحـث هنا، مفهـوم العدالـة وسـيادة القانون؛ المفهومـان اللذان يشـكلان أرضية المبـادئ التي جعلت من الدولـة العثمانيـة ذات طبيعة عالمية، واللـذان ينبغي توفرهما في أي نظام مهما كان شكل الدولة وعصرها.

الحس القانوني وسيادة القانون

بعد أبحاثه في الأرشيف العثماني طيلة اثني عشر عامًا، توصل الباحث "أ. حقي أوزون جارشـيلي" المعروف بطول باعه في مجـال البحـث التاريخي، إلى أن كثيرًا مـن الأجانب كـ"هَمَرَ" (Hammar) وغيـره مـن الباحثيـن فـي التاريخ العثمانـي، ربما كانـوا يحملـون أفـكارًا خاطئة عن هذا التاريخ، مسـجلاً هذه المعلومـات المهمة: "كنت أعتبر نفسـي مطلعًـا على التاريخ العثمانـي وخبيرًا به إلى درجة كافية قبل البحث في الدسـاتير العثمانيـة. غير أني بعد الخوض في تلك الدسـاتير ووثائقها، أدركت مدى ضحالة معلوماتي وسطحية رؤيتي لهذا التاريخ،



زيّ القضاة في الدولة العثمانية

وتبين لي مدى قوة هذه الدولة الأطول عمرًا بعد الإمبراطورية الرومانية والتي تمددت إلى ثلاث قارات، كما أدركت سبب عدم تمزقها وتلاشيها في زمن قصير -مثلما كان حال الإمبراطوريات السلجوقية والمغولية والتيمورية- بالرغم من تعرضها للصدمات الكثيرة في مرحلة انحطاطها، وتمكّنها من الوقوف على قدميها رغم ابتلاع أراضيها قطعة قطعة. فهذه القوانين التي بلغت من القوة مبلغ العقيدة والإيمان، وتطبيقُها بشكل أو آخر حتى في مراحل ضعفها، وانتقالُها من جيل إلى جيل، واستمرارُها بالعَنْعَنَة كنصوص مقدسة، ورؤيةُ الأمة التركية نفسَها في موقع القيادة في كل حين، كلُّ ذلك مَكّنها من إنقاذ نفسها، أي إنقاذ الجامعة الإسلامية من التمزق والانحلال".

سر قوة العثمانيين

إن القوانين والممارسات التي كانت سائدة حتى عهد السلطان محمد الفاتح في شكل تقاليد وأعراف، أصبحت مجموعة ومدوّنة اعتبارًا من هذا العصر. والدستور (قانون نامه) العثماني في عهد السلطان سليمان القانوني الذي يحوي "دستور التشكيلات" من عهد الفاتح والأحكام الحقوقية بشكل أعم وأكثر انتظامًا، كان واحدًا من أهم الدساتير العامة.

لم تصدر الدساتير العثمانية من مجلس واحد كما هو الحال اليوم، غير أن إعدادها كان يتم بصورة أشمل من خلال إجراءات قانونية معينة. فمشاريع القوانين التي يعدها مسؤول الفرمانات (نيشانجي) يعرضها على الديوان الهمايوني الذي يعتبر مجلس الشورى -وهو بالطبع عضو فيه- وبعد النظر فيها والتشاور تُقدَّم للصدر الأعظم، فيعرضها بدوره على السلطان، وبعد التصديق عليها تأخذ اسم القانون والفرمان. وقد تحدّث كاتب هولندي من غير المسلمين عن صلاحيات السلطان وسيادة القانون في الدولة العثمانية فقال: "إن القوانين الإسلامية في الفكر الأوروبي، هي عبارة عن أوامر كيفية مزاجية. فالشريعة المحمدية بحسب الأفكار الشائعة في أوروبا، أعطت لشخص السلطان التفرد فيما يشاء من الأفعال والتصرفات، أي الصلاحية المطلقة، وجعلت إرادة السلطان الكيفيةَ بديلة عن القانون، فهو يَسُنُّ القوانين كما يشاء... غير أن ذلك كله بهتان عظيم إذا ما قورن بالحقيقة".

إن الدستور العالي العثماني الذي تم تدوين محتواه وإقراره كقانون للتشكيلات في عهد الفاتح، بقي -بتعديلات بسيط- مُطبّقًا حتى عهد التنظيمات. هذا الدستور الذي يبدأ بهذه العبارة: "هذا الدستور هو قانوني كما كان قانون آبائي وأجدادي، وقد عمل به الأبناء الكرام جيلاً بعد جيل"؛ يتناول مراتب الأعيان الكبار وأصولَ وقواعد التشريفات "الألقاب" وتشكيلات رجال الدولة، ومهامَّ الموظفين من رجال القصر، وأحكامَ وعقوبات المخالفات والجرائم التي يرتكبها أركان الدولة. ويؤكد على أهمية عدم الاكتفاء بإصدار القوانين، بل ينبغي أن تكون أيضًا موضع التطبيق الجاد، وأن تشيع ثقافة القانون والثقة به بين الناس. وقد أكد كل من "مصطفى لي" في القرن السادس عشر، و"كوبي بك" في القرن السابع عشر -وكان لكل منهما موقعه المهم في الترتيب البيروقراطي- بعد بيانهما متانة القوانين القديمة وكمالها؛ أنه عندما يُظهر جميعُ الناس خضوعهم للقانون، يمكن للحكومة أن تقوم بكل خدماتها على أكمل وجه.

وهذا يعني أن نظام الدولة العثمانية ليس نابعًا من الممارسات المزاجية والعلاقات الشخصية، بل من بنية بيروقراطية مشكلة في إطار احترام القوانين. ويعزز هذا الطرح ما ذهب إليه خليل إِنالْجِكْ -الباحث المحلل في النمط السياسي العثماني- حيث يقول: "إضافة إلى أن مشهد الجهاز البيروقراطي العثماني في القرن السادس عشر، يسمح لنا أن نصوّب -ولو جزئيًّا- الصورة التي يعرضها "ويبر" (Weber). فالجهاز البيروقراطي في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)، لا يمكن النظر إليه كمجرد جزء مُلْحَقٍ بباب الحاكم فقط، والدواوين لم تكن خاضعة للعلاقات الشخصية والتبعية المطلقة للحاكم. وفي بحث ميداني، نجد أن البيروقراطية العثمانية التي كانت تعمل نسبيًّا في نظام عقلاني، مكوّن من بنية تراثية صرفة قائمة على القواعد والأصول قد تطورت تدريجيًّا إلى نظام إدارات الحكم الذاتي". يتبين لنا من كل ذلك أن البنية المَلكيّة التقليدية التي تصورها "ماكس ويبر" لنظام الحكم العثماني لم تكن تنطبق تمامًا عليه.

مبدأ العدالة في نظام الحكم العثماني

يأتي مبدأ العدالة في مقدمة أهم الخصائص التي تميز نظام الدولة العثمانية. ولقد قال "جان جاك روسو": "إن القوانين تؤمِّن العدالةَ، وعلى الرغم من أن الله هو أصلُ العدالة ومنبعُها، فإن وجود القوانين ضرورية للحكومات".

واكتسب السلاطين العثمانيون مشروعيتهم من خلال تطبيقهم أحكام القرآن والسنة، والعدالة واحدة من القواعد الأساسية الأربعة للقرآن، ولذلك وضع السلاطين أنفسهم في منزلة "الأفراد" وتمسكوا بسيادة القانون. ورأوا في "الرعايا" أمانة وضعها الله في أعناقهم، وأن وظيفة السلطان تكمن في حماية هؤلاء الرعايا ورفع الظلم عنهم. ووظيفة (الحَلِّ والعَقْدِ) التي أنيطت بالحاكم تتمثل في تأمين جميع العلاقات بين الرعايا على أساس العدل بينهم. وقد قام قضاة الدولة العثمانية بتجسيد هذه الوظيفة من خلال نظام قضائيّ يشمل الإمبراطورية كلها. ومارسوا عملهم كقضاةٍ محكمة عليا إلى جانب وظائفهم الأخرى في الديوان الهمايوني.

نظام سياسي تفوق على أوروبا الإقطاعية

وقد أثار "ليبر" (Lyber) في كتابه، الانتباه إلى أهمية العدالة عند العثمانيين بهذه العبارات الموجزة: "إن السبب الذي كان يمنح الحكم العثماني قوَّتَه ويحمي دولتَه من الزوال، يكمن في المحاسبة السريعة والأكيدة للمذنبين، وتحقيقِ العدالةِ بشكل سريع وفعال. فالمحاكم العثمانية يمكن القول بعدالتها، كما يمكن التأكيد بأن السلطان سليمان القانوني لم يأمر بإعدام أحد قبل محاكمته.. وقد تأثر بعض المراقبين الغربيين بالعدالة العثمانية التي تفوق عدالتهم في بلدانهم.. تأثروا بهذه العدالة التي تشتهر في الدولة شهرةَ النظام الصارم في الجيش، وشهرةَ نظامِ الترفيع في تسلسل الوظائف، والذي يستند إلى الأهلية والجدارة والخبرة في خدمات الدول العثمانية".

ولئن وقعت بعض الانتهاكات للقانون في القرون الستة من عمر الدولة العثمانية، فإنما تكون قد وقعت في الإجراءات والتطبيق، كما يمكن أن يحدث اليوم من المخالفات باسم القانون. غير أن الاستثناءات لا تنقض القواعد، والقانون والعدالة أصلان في الدولة العثمانية. ومن هذا الباب يمكن القول بأن الدولة العثمانية وإن كانت ملَكيَّة من الناحية السياسية، فإنها لا تنسجم مع الملكية الوراثية كونها نظامًا سياسيًّا أكثر تطورًا من الدول الإقطاعية التي كانت سائدة في الغرب. فلا أحد كان يملك -لا السلطان ولا غيره من حكام المناطق والأرياف- حق إصدار الأحكام الجزائية والمحاكمة. في المقابل، هذا الحق كان يملكه الأسياد الإقطاعيون في الغرب؛ فكانوا على النقيض من مركزية وسلطان القضاء في النظام العثماني، حيث لم يكن يملك الحكام المحليون في هذا النظام -حتى في القرن الثامن عشر- صلاحية المحاكمة، وهو ما يشكل علامة فارقة له عن النظام الإقطاعي الملكي. فبينما كان الإقطاعيون واللوردات في النظام الإقطاعي الذي كان سائدًا في أوروبا، يملكون حق التصرف مع رعاياهم وكأنهم قطعان من الأسرى من جملة الممتلكات أو الحيوانات.. لم يكن الولاة وأمراء السناجق وأمراء الإقطاعيات السلطانية (= سيباهي)، يملكون سوى إدارة رعاياهم في ظل الحقوق والقوانين، فليس لهم حق المحاكمات وإصدار العقوبات على هواهم.

لقد عرف "ماكس ويبر" جميع الدول التقليدية على أنها دول ملكية وراثية، وقوَّم الدولة العثمانية ضمن هذا الإطار. ففي الأنظمة الوراثية تكون العلاقات الشخصية هي الفيصل والحكم وليست سيادة الحقوق والقوانين، ويطلق عليها "كارتر ف. فيندلي" لقب "حكم العائلة الموسعة أو الكبيرة".. فالملك أو السلطان في أنظمة الدول الوراثية، يومٌ بدور الأب في عائلته -يتصرف كيفما يشاء- والموظفون في الدولة خدم أو عبيد له. وهذا المفهوم للدولة الملكية الوراثية التي خرجت من رحم النظام الإقطاعي الأوروبي؛ لا ينطبق على النظام العثماني.

وكما سبق أنْ أوضحنا في هذا البحث -وهو ما أكده أوزون جارشيلي وخليل إنالجيك- فإن السلطات التي تعاقبت على الدولة العثمانية، مارست حكمها بالقوانين من خلال تنظيم بيروقراطي عقلاني نسبيًا. وفي هذا الصدد، أشار أيضًا حقوقي هولندي نقلاً عن باحث أمريكي، إلى أن الدولة العثمانية كانت تمتلك نظامًا حقوقيًّا ومفهومًا للعدالة أرقى من دول أخرى. وما من شك كما أسلفنا في وقوع حالات ظلم في بعض مناطق الإمبراطورية التي امتدت لحقبة طويلة بلغت ستة قرون على بقعة جغرافية واسعة، وضمت في بنيتها شعوبًا وأديانًا كثيرة، غير أنه على العموم؛ روعِيَت القوانين التي ارتقت إلى درجة الإيمان بها في الإمبراطورية العثمانية منذ قيامها وحتى سقوطها، وسادت حاكمية العدالة حتى أقصى بقاعها من خلال نظام حقوقي مركزي. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

العطري بن عزوز*





الجِلْد
لباس الإنسان المعجِز

مـن مظاهـر التكريم الإلهي للإنسـان حُسْـن الخِلْقـة والتسـوية، قـال تعالى: ﴿فَإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْـتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِـي فَقَعُوا لَهُ سَـاجِدِينَ ۞ فَسَـجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾(الحجر: ٢٩-٣٠). فالإنسـان قبضـةٌ مـن طين ونفخةٌ من روح، وقـد خلقه الله تعالى بصورة تناسـب الاسـتخلاف في الأرض. فهو منصـوب القامة ليرفع رأسـه إلـى الأعلـى ليفكر بعقلـه. وجعل الله له عينين ولسـانًا وشـفتين... ولو نقص عضو أو زاد لـكان المنظر قبيحًا. وكل تلك الأعضاء يغلّفها سـتارٌ محكم بديع يحجب الأسرار التي تجـري بداخلـه. هذا السـتار هو الجلد، وهو مـن أدق وأروع الآيات المحكمات الدالة على جليل صنع الخالق، لذا سوف نتوقف عنده قليلاً لنتعرف على بعض أسراره.

الجلد إعجاز وإحساس

حينما ننظر إلى جلد الإنسـان، نجده يتأقلم مع كل المناخات ويتبدل دوريًّا كما يقول الدكتور كاريل: "إن الجلد الذي يغطّي السـطح الخارجي للجسـم، غير قابل للاختراق بواسطة الماء والغازات، كما أنه لا يسـمح للجراثيم بالدخول إلى الجسـم، فضلاً عن أنه قادر على تحطيم هذه الجراثيم بمساعدة المواد التـي تفرزهـا غددُه، بيد أن تلـك الكائنات القاتلـة التي نطلق عليها "فيروس" قادرة على عبوره".(١)

فالغريـب أن هذا الجلد يسـمح بخروج الماء ولا يسـمح لـه بالدخول كمـا يقول الدكتور عبـد الرزاق نوفـل: "فالجلد لا ينفـذ منه الماء ولا الغازات رغم مسـامّه التي تسـاعد على إخـراج الماء من داخل الجسـم، فهو يُخرج الماء ولا يسـمح بدخولـه! والجلد معـرّض لهجمات الميكروبـات والجراثيم

التي تسبح في الجو، لذلك يسلّح بإفرازات قادرة على قتل تلك الميكروبات".

أهم وظائف الجلد

ويضيف قائلاً: "ومن أهم وظائف الجلد؛ حفظُ الجسم عند درجة ثابتة من الحرارة، إذ إن أعصاب الأوعية الدموية في الجلد، تنشطها عندما يشتد حرّ الجو كي تشعّ منه الحرارة. وتفرز غُدَد العرق ما يزيد على لتر من الماء، فتخفض درجة حرارة الجوّ الملاصق للجلد. أما إذا اشتد برد الجو انقبضت الأوعية الدموية، فتحتفظ بحرارتها ويقل العرق... هذا الجهاز أُعِدّ بعناية وتقدير".(٢)

الجلد أكبر أعضاء جسم الإنسان

وكما هو معلوم، فإن الجلد هو أكبر عضو في جسم الإنسان؛ إذ تبلغ مساحته ٢ متر مربع، وتنمو خلايا الجلد وتموت وتستبدل نفسها باستمرار. وقد بيَّن علم التشريح أن الجلد ليس كما كان الناس يتصورونه، بأن جسم الإنسان حسّاس كله للألم، بل الحقيقة هي كما يقول الدكتور خالص جلبي: "إن انتشار الأعصاب تحت الجلد شيء لا يكاد يُصدّق، وتنتهي الألياف العصبية بجسيمات خاصة يختص كل نوع منها بنقل حسّ معين، فهناك جُسَيْمَات تنقل الحرّ، وأخرى تنقل البرد، وثالثة للمسّ والضغط، ورابعة للحسّ الألم، وخامسة تختص بنقل الحس العضلي أو ما يسمى بالحسّ العميق، وهكذا تتنوع الإحساسات وتتباين".(٣)

وهذا ما أثبته العلم الحديث؛ حيث توصل العلماء المجتمعون في المؤتمر الذي عُقد أخيرًا بمدينة نيويورك، وكان الهدف منه إظهار ما تفعله خلايا البشرة، وكيف تعمل.. فكانت النتائج أنه عندما يُصاب المرء بحروق شديدة، فإن بعض وظائف الجلد البيولوجية والكيمائية تتوقف أو تتعطل، وقد يكون توقفُها أخطر من فقد الجلد نفسه.(٤)

الجلد من صور الإعجاز العلمي في القرآن

وقد تناول كثيرون بالدراسة دلالة القرآن الكريم على وجود تركيبات دقيقة في الجلد تقوم بوظيفة الإحساس، وإذا دُمِّرَت تلك التركيبات عند حريق الجلد يتعطل نقل الإحساس، ولا سبيل لإعادته سوى بتجديد الجلد وتبديل التالف، يقول العلي القدير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا



نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(النساء:٥٦).

فإذا دخل الكافرُ النارَ يوم القيامة وأكلت النارُ جلدَه، فهل ينتهي الأمر عند هذا الحد؟ ويقول الكفار: تخوفونا من النار! فالنار تأكل الجلد ثم نرتاح! لكن القرآن يخبرنا بأنه؛ الجلد سيُبَدَّل بجلد آخر حتى يذوقوا عذاب النار. وما كان بوسع أحد من البشر قبل اختراع المجهر وتقدم علم التشريح الدقيق أن يعرف هذه الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا مضت.

وفي هذا المعنى يقول الشيخ الشعراوي: "القرآن مسَّها على أنها حقيقة واقعة، والعلم لا يخلق الحقائق، وإنما يكتشف الحقيقة الموجودة؛ فالإذاقة موطنها الجلد، والحسّ موطنه الجلد وما تحت الجلد. إذن القرآن قد تكلم عن الحقيقة العلمية حقيقة مستقرة ثابتة. صحيح أنه لم يُعلمنا أنه تعمل تجربة للمخ، وتجربة للنخاع الشوكي، وأعرف الحركة العكسية.. لا أبدًا، إنما تكلم على أنها حقيقة واقعة ملموسة عرفها الإنسان أو لم يعرفها، ولكن الوسيلة إلى معرفتها ذلك هو النشاط الذهني للإنسان".(٥)

الجلد، مخاطر ومحاذير

ومن جهة أخرى يحذّرنا الدكتور ألكيس كاريل في كتابه

"الإنسـان المجهول" من المخاطر التي قد يتعرض لهـا الجلد في حياتنا نتيجة التعديـلات الطبيعيـة والكيميائيـة التي نقـوم بهـا دون درايـة بعواقبهـا فيقول: "إننـا بعيـدون كل البعـد عـن الإلمـام التـام بالتأثيـر الـذي يحدثـه التعـرض لأشـعة الشمس على نموّ الجسم كله.. فإلـى أن نتمكـن من معرفـة طبيعة هذا التأثيـر بالضبط، فإن العُـرْيَ والمغالاة فـي "دبغ" الجلـد بالأشـعة الطبيعية أو بالأشعة فوق البنفسجية يجب ألا يقبل دون تدبر، فإن الجلد وملحقاته يلعبون دور الحارس الأمين لأعضائنا ودَمنا..".

> **إن الجلـد الذي يغطّي السطح الخارجـي للجسم، غـير قابل للاخـتراق بواسطـة المـاء والغازات، كمـا أنه لا يسمح للجراثيم بالدخول إلى الجسم، فضـلاً عـن أنـه قـادرٌ علـى تحطيم هـذه الجراثيم بمساعدة المـواد التـي تفرزهـا غـددُه.**

ويضيف قائلاً: "وهكذا يتكون من جسمنا عالم مغلق يحدّه الجلد من أحد جانبيه، والغطاء المخاطي لسطوحنا الداخلية من الجانب الآخر. فلو أُضعِفت هذه الأغشية في إحدى النقط لتعرض كيان الإنسان للخطر، فقد ينتهي مجرد الحرق السطحي بالوفـاة إذا امتـد فوق منطقة كبيرة من الجلد... إن هذا الغطاء يفصـل أعضائنا وأخلاطنـا عن البيئة الكونيـة، ومع ذلك فإنه يسـمح باتصالات مادية وكيميائية غزيرة بين هذين العالمين، إنـه يحقـق معجزة؛ وذلك لأنه مغلق ومفتـوح في آنٍ واحد".

الجلد ناقل للبيانات الرقمية

وقد أثبتت دراسـة حديثة في اليابان أن جلد الإنسـان وجسمه ينقل المعلومات ويحفظها، كما لو كان ناقلاً للبيانات الرقمية، بل يمكن أن يعمل كشـبكة معلومات شـخصية متحركة عالية السرعة، تربط بين هاتفك المحمول وسماعة الأذن اللاسلكية والكاميرا الرقمية ومشـغل الفيدي وحاسبك الدفتري وغيرها مـن الأجهـزة التي تحملها معك لتنتشـر بيننـا مقولة: "ما نقل بياناتـك مثـل جسـدك". ليس هذا مـن قبيل الخيـال العلمي، ولكنـه تحوّل بالفعل إلى حقيقة مـع تكنولوجية "ريد تاكتون" (Red Tacton) التـي طوّرتهـا شـركة الاتصـالات اليابانيـة (إن تـي تـي دوكومو) والتـي تمكّنـت -بالفعل- من نقـل بيانات كالموسـيقى والفيديـو الرقمـي عبـر كابلات عبـر الجلد من اللحم والدم. وتقوم تقنية "ريد تاكتون" بتحويل سطح الجسم البشـري (الجلد) إلى مسـار، ينقل المعلومات بسرعات تصل إلـى ١٠ ميجا بايت فـي الثانية بين أي نقطتيـن، وبهـذا الشـكل يمكنـك أن تتبادل مع آخـر المعلومات من خلال مصافحة اليدين".[٦]

يبـدو أن هـذا الـكلام هـو تفسـير لقـول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَـهِدَ عَلَيْهِـمْ سَـمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُـمْ وَجُلُودُهُـمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَـيءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَمَـا كُنْتُمْ تَسْـتَتِرُونَ أَنْ يَشْـهَدَ عَلَيْكُـمْ سَـمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُـمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِـنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّـا تَعْمَلُونَ﴾(فصلت:٢٠-٢٢). ومعنـى هذا أن الجلد والسـمع والبصـر، ومـا يتصـل بهم من أعصـاب وأجهزة أخـرى تقوم بـدور حفـظ المعلومات وكل مـا يقوم به الإنسـان في حياته ويـوم القيامـة. حيـن يجحد الإنسـان أعمالَه التي قـام بها في حياتـه الدنيوية تصـدر هذه الأجهـزة البيانـات المخزّنة طيلة حياتـه وتظهـر الحقيقـة مبينة. وتكـون هذه الآية خير شـاهد على إصرار الإنسان على المعصية وعدم الاهتمام بهذا النداء والتحذير الإلهي.

وما زالت الأسرار تكتشف لتضع الإنسان موضع العجب والحيـرة التي لا يملك بعدها إلا التسـليم بعظيم قدرة الله في الإنسان وفي الكون. ■

---

[*] باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز / الجزائر.

الهوامش:

[١] الإنسان المجهول، لـ"ألكيس كاريل"، ص:٧٨.

[٢] الله والعلم الحديث، لعبد الرزاق نوفل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط:٣، ١٩٧٣، ص:٤٢.

[٣] الطب محـراب للإيمـان، لخالـص جلبـي، دار الهـدى، الجزائـر، ج:١، ص:٢٣٠.

[٤] مجموعـة مـن الاختصاصيين، تحريـر يحيى أحمد كوسـا، تقارير علمية، ص:٢٠٩.

[٥] الإسلام حداثة وحضارة، لمحمد متولي الشعراوي، ص:١٥١.

[٦] الكويـت، مجلـة العربـي العلمي، العدد:١١، ربيـع الأول ١٤٢٧هـ، أبريل ٢٠٠٦ م، ص:٢٠.

أدب

أ.د. عماد الدين خليل*

إذا أرواحُنا جَفَّتْ، وقلوبنا أقفرت، وعقولنا أمحلت.. انعكس كل ذلك على حقولنا وبساتيننا وأشجارنا وأزهارنا، فيقفر السهل، ويذوي الشجر، وتتصحر الرياض، ويتصوح الزهر، وتغدو مزابل للهوام والذباب.. فخضرة حقولنا من خضرة قلوبنا، وارتفاع صروحنا من ارتفاع هاماتنا، وعمارة معابدنا من عمارة نفوسنا.

* * *

أبجدياتٌ حول أدب الغموض

لنكن صرحاء؛ فإن "القرَف" هو ردّ الفعل الذي يعاني منه القارئ وهو يتعامل مع مساحات واسعة من معطيات الأدب العربي في العقدين الأخيرين. أما القرّاء الجدد، أولئك الذين لم يصلب عودهم بعد، فإن "القرَف" قد يدفعهم إلى الانسحاب من معركة "المطالعة" وقفل الأبواب نهائيًّا على عالمها المترع بالخصوبة والجمال والعطاء. يقول أحدهم: إنني لست مستعدًّا لأن أرهق أعصابي وأستنفد طاقتي الذهنية وأنا أقرأ هذا الديوان أو ذاك، وأطالع هذه المجموعة القصصية أو تلك، وأتابع هذا التحليل النقدي أو ذاك، دون أن أصل إلى نتيجة إن على مستوى الفكر أو على مستوى الحسّ والوجدان، وأنا أحاول فك الألغاز وحلّ الطلاسم والرموز في كل فقرة، بل في كل سطر أو كلمة، إن التواصل بيني وبين العمل الأدبي منعدم تمامًا، وإقامة الجسور أمر مستحيل.

الوفاق المرتجى بين اللغة والتجربة

وإذ لم يكن هؤلاء القراء "الجدد" قد استَذْوقوا أدب العقود

التي سبقت هذه الموجة الضبابية العارمة، وتعاملوا مع عطائه الخصب، الممتع، المثير، المتميز بالوضوح الذي لم يكن يومًا نقيضًا للعمق وللقدرة التعبيرية عن التجربة في أعمق أغوارها وأبعد آفاقها... أدب الوضوح العميق أو العمق الواضح إذا صحت التعابير.

إذ لم يكن هؤلاء قد تعاملوا مع هذا التراث الذي ربى العديد من الأجيال المعاصرة، وعلّمها وملأ حياتها بالمتعة في الوقت نفسه، فإنه قد يكون مبررًا موقفهم ذاك، أن يغادروا -وإلى الأبد- ساحة القراءة، وألا يسمحوا لأيديهم أن تكتوي بنار العبث الذي يفرزه حشد من الأدباء الجدد ما كان بمقدور أحدهم يومًا أن يعبّر عن "التجربة"، بالشروط الفنية المتعارف عليها وباللغة القديرة على الرسم والتعبير. وهم من أجل تغطية عجزهم عن تحقيق الوفاق الهندسي الباهر بين اللغة والتجربة، يلجأون إلى هذا الإغماض والتعتيم والألغاز، لكي ما يلبثوا أن يصيبوا الإنسان بالقرف، لعله من خلال الدوار والغثيان، يفقد قدرته على إصدار حكم نقدي عادل يضع هذه المعطيات في المكان الذي تستحقه.

فأما أولئك القراء الذين عايشوا أدب الكبار، واستذْوقوه وتعلموا منه، أولئك الذين هزّتهم حتى الأعماق أيام "طه حسين" ورسائل "الرافعي" وتراجم "العقاد" وترجمات "الزيات" وشهرزاد "الحكيم" وثلاثية "محفوظ"...إلخ، فإنهم سيجدون أنفسهم مضطرين لأن يبعدوا هذا الغثاء، يدفعون أكداسه ذات اليمين وذات الشمال لكي يجدوا الطريق مفتوحًا أمامهم إلى أحد عالمين، حيث يجدون فيهما ما افتقدوه ها هنا: الأدب المؤثر والفن الجاد، عالم الأدباء الكبار أولئك، وعالم الأدب فيما وراء دنيانا العربية، حيث يعرف الإنسان كيف يتحقق الوفاق المرتجى بين اللغة والتجربة في إبداع فنيّ يتميز بالوضوح والعمق معًا.

ومَن منا لم يقرأ -على سبيل المثال- الحرب والسلام لـ"تولستوي"، والأخوة كارامازوف لـ"دستويفسكي"، وقصة مدينتين لـ"ديكنز"، والبؤساء لـ"هوغو"، ووداعًا للسلاح لـ"همنغواي"، والطاعون لـ"كامي"، والحقيقة ولدت في المنفى لـ"فانتيلا هوريا" وأفول القمر لـ"شتاينبك"، والساعة الخامسة والعشرون لـ"جيوروجيو"، والدكتور زيفاغو لـ"باسترناك"، والدون الهادئ لـ"شولوخوف"، ولعبة الكرات الزجاجية لـ"هيسة"، ومائة عام من العزلة لـ"ماركيز"... وغير هؤلاء كثيرون من الأدباء الكبار الذين إن لم نتعلم منهم شيئًا، فيكفي أن نتعلم كيف أن الأدب والفن العظيمين لا يتحققا إلا بجهد قاسٍ وكفاح صعب من أجل تحقيق التواصل بين الأديب والفنان وبين الجمهور المتلقي.

أدباء الألغاز وعشاق الغموض

وتتهافت -من ثم- واحدة من المقولات الخاطئة بهذا الصدد، وهي أن أدباء الألغاز والتعتيم هؤلاء، يريدون أن يتوجهوا بعطائهم إلى الجماهير. فإن أية إحصائية سريعة عن إقبال الجماهير على هذا الأدب أو ذاك، سوف تعرض أدباء التعتيم للسخرية، وسوف تتركهم عرايا ولا من يستر على أجسادهم التي يلفحها برد العزلة والغربة والانزواء.

وإنها -إذن- لجناية مزدوجة على الأدب يرتكبها هؤلاء، مرةً بحق الأدب نفسه؛ بتزوير حقيقته وتزييف مهمته لتغطية عجز في التعبير أو ضمور في التجربة، ومرةً بحق القراء والمطالعين بصدّهم عن الفن الجميل بهذا القرف الذي يركمونه عبر الطرقات، وكأنهم -بهذا- يحكمون على القارئ بالأشغال الشاقة المؤبدة، حيث لا سبيل إلى التحرر من متاعب هذا الركام وغباره الذي تضيق معه الأنفاس.

ولا يخطرن على البال -ها هنا- بأن الهجوم على هذا الغثاء الجديد، هو رفض للجديد نفسه وتشبث تقليدي بالقديم. فالجمال لا عمر له ولا وطن... وقد ذكرنا عددًا من أسماء كبار الكتّاب في العالم وهم محدثون ومعاصرون لنا، لكي نقطع الطريق على هذه المقولة الخاطئة. فليأتنا طلاب مدرسة "الغثيان" هذه، بعمل كبير على مستوى ما قدمه أولئك الكبار، ليأتوننا به في سبعينات هذا القرن أو ثمانيناته أو فيما وراء القرن الراهن كله، فإنهم سيجدون يومها التوجهَ الحقيقي الذي يبتغونه تقديرًا وإعجابًا.

والمسألة -إذن- ليست أمر عقد مضى أو عقد يجيء، إنما هي ضرورة أن يكون الأديب أو الفنان متحققًا -لو بالحدّ الأدنى- من شروط ومواصفات الأدب الجاد والفن الجميل.

وثمة سؤال يحيك في الصدور ونحن نتحدث عن هذا الأدب "الجديد": ماذا عن المذاهب الفنية والأدبية الغربية التي تميزت هي الأخرى بقدر كبير من الألغاز والغموض، ولكنها مع هذا، فرضت نفسها في ساحة الآداب والفنون؟ ماذا عن الرمزية والدادائية والسريالية وموجات الغضب والعبث واللامعقول؟

لغة الأدب الغربي في مخاطبة الكون والحياة

الحق أنه بمراجعة متأنية لنماذج من معطيات الأدب الغربي

التـي تميـل إلى "الإغماض"، تتبدى واضحـة حقيقة أن القوم هنـاك لا يتعمـدون ذلـك لغرض الإغماض، أو لشـهوة تميل إلـى التعتيـم والألغاز اللذين يختفـي وراءهما أي هدف على الإطلاق، وإنما يفعلون ذلك بسببٍ من الرؤية التي يحملونها تجاه الكون والعالم والحياة والإنسان، أو المذهب الأدبي الذي ينتمون إليه والذي يحتم عليهم هذه اللغة أو تلك في التعبير، وهذه الصيغة أو تلك في طرح الرؤى والمواقف والمعطيات.

وبغـض النظـر عـن المنطلقـات الخاطئـة لمعظـم تلـك المعطيـات، فإنها -على أية حـال- تفرض أوّلياتها ومفرداتها علـى صيـغ التعبير فيحـاول أن يغطيهـا بالتكافـؤ المطلوب، فلا تكون المحاولة -من ثم- سـوى ضرورة وليسـت ترفًا أو تجوالاً في الفراغ.

هنالك -على سبيل المثال- المذهب الطليعي أو "مذهب العبث واللامعقول" الـذي يرى الكـون عبثيًـا لا مجديًا يلفه الغمـوض، فيعبر عنه -أو يجابهه بعبارة أدق- بالمعطيـات الأدبيـة التـي تنطلـق -كمـا يـرى رواد هـذا المذهـب- مـن مواقع الصدق والأمانة فتغمض وتعبث.

وهنالـك المذهـب السـريالي الـذي يريـد أن يكسـر قشـرة الوعـي، ويتوغـل إلـى الأعماق حيـث تضطرب المعانـي وتتداخـل الـرؤى والأحـلام، ويفـرز العقـل الباطن معطياتـه المترعة بالغبـش والضبـاب... فيجـيء التعبيـر الأدبـي مغبشًـا مضببًـا محـاولاً أن يتكـئ علـى القوة الباطنيـة للكلمـة وعلى قدراتهـا المخفية، لكـي يحقـق الهـدف المطلوب بالتعبيـر عـن ذلـك العالـم الهيولـي المتحـرك أبـدًا والـذي لا يثبـت علـى شـيء.

وهنالـك المذهب الرمزي الذي يسـعى إلى عدم مجابهة الواقـع وجهًا لوجه أو الوقوف قبالته لهذا السـبب أو ذاك من الأسـباب الموضوعية أو الجمالية البحتة، فيسعى إلى اعتماد إمكانات اللغة المجازية ويسـتخدم رموزها ودلالاتها للتعبير عن هذا الموقف أو المعنى أو ذاك.

وهنالـك مذهـب "الروايـة الجديـدة" الـذي يدعـو إلـى إلغـاء وجـود الزمـن فـي العمـل الروائـي، وتفكيك سلسـلة الأحـداث، وإلغاء الشـخصيات واسـتبدالها بأخرى لا تملك أسـماءً ولا وجوهًـا ولا ماضيًـا ولا حاضـرًا ولا مسـتقبلاً، وتصفيـة العقـدة والحبكـة، الأمـر الـذي يحتم علـى الرواية أن تنحـو منحـى جديـدًا غيـر مألـوف ولا متعـارف عليـه.

وهنالك مذهب الغضب الذي يسـعى إلى مجابهة أخطاء العالم وجرائمه ولا إنسانيته بالعنف الفني الذي قد يصل حدّ الهذيان والسِّـباب، ويعتمد لغةً يتعمّد أصحابُها أن يكسّـروها وهـم يرمـون بها في وجه العالم كما يرمي الإنسـان الغاضب بإناءٍ زجاجي فيتفتت وينكسر على هذا الرأس أو ذاك.

وهنالـك مذهـب الإغـراب "الملحمـي" الـذي يتعمّد أن "يغـرب" في لغته وتكتيكـه، لكي يحقق الانفصال بين القارئ أو المشـاهد وبين العمل الذي يعرض بين يديه، فهو يمارس مـا يمكن اعتبـاره ضربـات مفاجئة بين الحيـن والحين، لكـي يحافظ على هذا الانفصـال ويضـع المشـاهد أو القارئ قبالة العمل وليس فيه، لكي يتعلم ويثور.

> **إن تراكم الخبرة الثقافية-الجمالية، والنقديـة على وجـه الخصوص، والتأثير العمقي لهذا التراكم على المعطيات الأدبية والجمالية عمومًا، يتوجب أن يجعـل الأجيال التالية أعمق وأخصب خيالاً، وأكثر قدرة علـى التوغـل في مجاهيـل الكون والعـالم، وامتلاكًا لناصيـة التعبير المؤثـر الجميـل عـن معطياتهمـا.**

ومـع ذلـك، فنحـن نقـرأ -مثـلًا- لـ"يوجيـن يونسـكو" أو "جـان جينيـه" أو "صمويـل بكـت" من كتّـاب الطليعة فنفهـم مـا يقولونـه، ونقـرأ لـ"رامبـو" أو "إيلـوار" أو "أبوللينيـر" مـن شـعراء السـريالية فنسـتطيع أن نلتقـط بعض ما يقولونه، ونقرأ لـ"إليوت" شـاعر المجاز المعروف، فنعرف جانبًا مما يريد أن يعبّر عنـه، ونقرأ لـ"جنتر جـراس" وهو واحد مـن أتباع الرواية الجديدة، فنعرف جيدًا لماذا تنمحي الشخصية الروائية وتتسطح وتغدو مجرد رقم من الأرقام، ونقرأ لـ"أوزبورن" رائد المسرح الغاضـب، فنغضب معه ونعـرف تمامًا لماذا هو غاضب، وما الذي يريده شخوصه مما يصدر عنهم من أقوال وأفعال، ونقرأ لـ"بيتـر فايـس" و"برتولد برخت" بعض معطياتهما المسـرحية الملحمية فيتحقق الانفصال الذي يريده الرجلان، ونتلقى من أعمالهما التعاليم التي يريدان أن يوصلاها للناس بغض النظر -مـرة أخـرى- عن صـدق هـذه التعاليم أو زيفهـا وارتطامها مـع قناعاتنـا وتصوراتنـا للكـون والحياة والوجود والإنسـان.

لن يتسـع المجال هنا لطرح النماذج التي قد تقنع عشـاق الغمـوض فـي بلادنـا بخطـأ موقفهـم وتهافته، بل لن يتسـع المجـال حتى لطرح بعـض النماذج والنصوص الفلسـفية أو

النقدية التي يبّرر بها أتباع تلك المذاهب الغربية سيرتهم الجمالية تلك، ولكننا نمرّ سريعًا ببعض ما قيل عن المذهب الطليعي (العبث واللامعقول) لكي نعرف الأسباب.

الطليعيون ودكتاتورية العقل

يذكر "رتشارد كو" في كتابه عن "يونسكو"؛ كيف "أن كل النزعات التي كبحتها دكتاتورية العقل خلال قرنين من الزمان اندفعت إلى السطح، وشهد النصف الأول من قرننا العشرين عدة حركات ثورية؛ كالتكعيبية والمستقبلية والسريالية والتعبيرية والدادائية والوجودية، وكلها حركات تسعى -بطرائقها الخاصة- إلى إلقاء الضوء على موقف الروح الإنساني في كونٍ غاب عنه المنطق. وعندما يختفي المنطق تختفي أيضًا مبررات الوجود. وهكذا نرى أن "يونسكو" -مثل كامي وسارتر- يرى في وجودنا حقيقة لا هي بالمنطقية ولا هي بالمبررة. إنها حقيقة ولكنها حقيقة عبثية، فالوجود الذي لا يبّرره منطق عبث".

ويمضي "ريتشارد كو" يبّين كيف سعى الطليعيون إلى إلغاء النظرة القديمة "الكلاسيكية" إلى قواعد الكون الأساسية؛ الزمان والمكان ووحدة الشخصية، وكيف أنهم كتبوا "دراما الساعات المكسورة" بمعنى أن أبطالهم يعيشون في عالم توقفت ساعاته. وحين يفقد الإنسان الشعور بالزمن تصبح "السن" كلمة لا معنى لها. وما دمنا قد محونا الزمن فقد محونا "تراكم التجارب" التي يأتي بها الزمن، وعلى ذلك فلا معنى للقول بأن الشيخوخة -مثلاً- تأتي بالحكمة. وقوانين المكان -من ناحية أخرى- لا معنى لها، فهي تعسّفية، وصدقها وكذبها رهن بالإنسان الذي يدركها، وغياب التتابع المنطقي يستلزم غياب وحدة الشخصية. فليست الشخصية سلسلة متصلة من الصفات كما يزعم الكلاسيكيون، وإنما هي حالات دائبة التغيّر يتبع بعضها بعضًا. وما يقوله "م" يمكن ببساطة أن يقوله "ب" دون أن ينجم عن ذلك ضرر كبير. إن الـ"أنا" ما هي إلا انعكاس للعالم الخارجي، أو قُلْ إن العالم الصغير هو صورة مصغرة مثالية للعالم الكبير، ففوضى الأول وتشتته تتبدى في الثاني على نطاق أوسع، وليس هناك خط واضح يفصل بين الإثنين.

ويبيّن يونسكو -بعبارة واضحة- تهافت الشخصية الإنسانية لأنها ليست -بعد أن تكشف عبث العالم- سوى قطعة من ملايين القطع التي يعبث بها الكون: "إن كل شخصياتي على خصام مع الدنيا... لقد غمرهم القلق التاريخي الذي يسود العالم وتورطوا فيه".

إنه عالم رهيب -يقول يونسكو- إلا أنه عالم لا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجدّ، فهو يوشك لفرط سخفه أن يكون مضحكًا. ومن ثم فإن رؤية الطليعيين هذه للعبث، لم تتح لهم أن يطمئنوا للشكل المسرحي العقلي "الأرسططالي" أداة للتعبير، فالمضمون في العمل الفني هو الذي يحدّد الشكل. لذا تمرد "يونسكو" ورفاقه على الواقعية المسرحية، ورفضوا الواقع المنقوص الذي تصدر عنه وتصوره وتفرضه اعتسافًا، وانصرفوا إلى عرض ما كان يتراءى لحسّهم الفني ووعيهم الإنساني كواقع شامل بكل ما فيه من مأساة ومن مهزلة، وكل ما فيه من عبث وخواء وتناقض.

ومع الواقع تتفكك اللغة، وتتهاوى قطعًا متناثرة، وتفرغ من كل معنى وتفقد قدرتها على التواصل بين الإنسان والإنسان. إننا نفهم إذن، الأسباب التي دفعت بالطليعيين وغير الطليعيين، إلى اعتماد اللغة والصيغ التعبيرية الخارجة عن المألوف. ونفهم -كذلك- معطياتهم كانعكاسٍ صادقٍ لرؤيتهم للكون وفلسفتهم في الحياة... ولكن المرء يصعب عليه أن يفهم ما الذي يريد أن يقوله لنا حشد من أدبائنا الجدد.. ولماذا؟

يقول أحدهم: "الأقمشة الممزقة ممنوحة لي عبر الشمس، والمدينة مخدوعة بمعاطف السبت. هذا الفسق ماذا يعرف عن يدي؟ في الباحة، المعلم الهولندي يلتقط الجواهر -ويخسرها أيضًا- والساهرة اليتيمة تعتقل الرغبة هناك. ما أجمل المتوكلين المحبوبين. رامبو، حين طار جسده مات، ملاجئ التأرجح. تروتسكي لم يمتلك خجل الفنادق. ج: تتدفأون على وحشة القلب متشبثين بصبوات القصيدة". ويقول آخر:

"أصعد البرق

في منتصف الجسر أي قهقهة فيك

امرأة صغيرة تفتح شفتيك وتنزل

تأخذك بطمأنينة.. الحب.. العار لا يعرفها..

سحرت نهرًا. يصعد ظهر الغشاء. سحرت الغشاء

حربي ذلك السرّ. لعاب سلاحي يخشخش فرحًا

رأس يوسف النجار على كتفي، وجميع العصافير ترن فيه". وما هما إلا شاهدان من تيّار صاحب عنيف.

استيعاب الخبرة وتطويع اللغة للتعبير

إن تراكم الخبرة الثقافية-الجمالية، والنقدية على وجه

الخصوص عبر العصور وبخاصة في العقود الأخيرة من قرننا العشـرين هـذا، والتأثير العمقي لهذا التراكـم على المعطيات الأدبيـة والجماليـة عمومًا، يتوجب أن يجعـل الأجيال التالية أعمـق وأخصب خيـالاً، وأكثر قدرة على التوغل في مجاهيل الكـون والعالم، وامتـلاكًا لناصية التعبيـر المؤثر الجميل عن معطياتهمـا... أكثر بكثير مما كان عليه أدباء القرون الماضية، بل أدباء النصف الأول من هذا القرن.

ولكن الذي يحدث -للأسف- وعلى مساحات واسعة من أدبنا الحديث، أن يتحول هذا السلاح إلى أداة مضادة نشهرها ضـد أنفسـنا بتحويل الخبـرة إلى عالم ملتـوي الدروب معتم الآفاق، يضيع في غبشه وضبابه المفتعل ذوو البصائر والألباب.

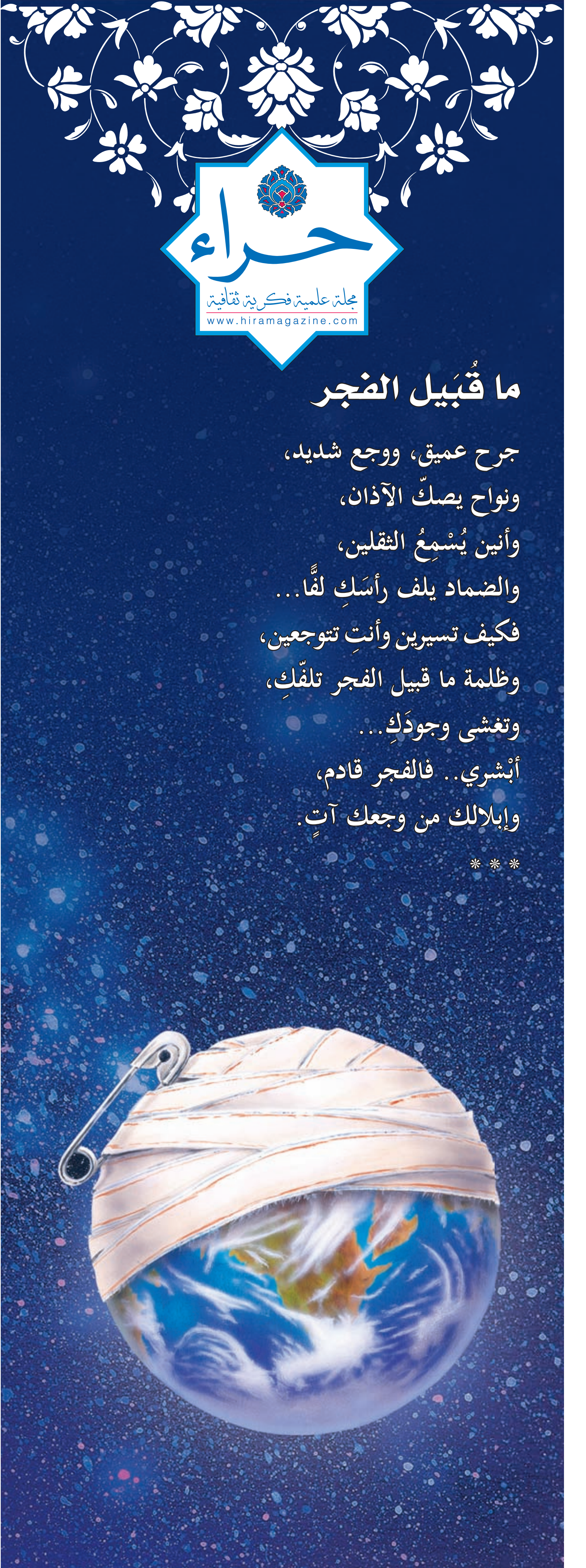
ولـن تكون "الخبـرة" الغنية بحال المشـجب الـذي نعلّق عليه أخطاءنا، لأن أدباء العالم لم يفعلوا هذا ولن يفعلوه، بل إنهم ازدادوا بالخبرة نضجًا وعمقًا.

وأغلب الظن أن الخطأ يكمن في الأدباء الجدد أنفسـهم، في عدم قدرتهم على اسـتيعاب الخبـرة وتطويع اللغة للتعبير عـن التراكم السـريع في معطياتهـا، فيلجأون إلـى "الاختباء" خلـف دوّامات الضباب والتـواءات الإغماض والتعقيد. ولن يكـون بمقـدور الأرض البـور أن تتفجـر بالأنهـار وأن تزهو بالحدائق ذات البهجة. لن يكون بمقدورها إلا أن تنبت الشوك والحسك الذي يجرح ويدمي فلا يعطي الجمال المرتجى.

بإيجاز شـديد، فـإن "الموقـف" البديل الـذي يتوجب أن يعتمـده أدبنـا المعاصـر بصدد الثابـت والمتحول، السـتاتيك والديناميـك، فـي تيار الإبـداع الأدبي، إنما هـو موقف يقوم على رفض السـكون التام من جهة، والحركة العمياء من جهة أخـرى... موقـف يحترم عناصر الديمومـة والثبات من جهة، وينفتح على قوى التجديد والتغيير والتحول من جهة أخرى.

إن قبـول الجديد المتغيّر، يتوجب ألا يكون على حسـاب التفريـط بـأي مـن العناصر الثابتـة التي تمثل عصـب الإبداع وهيكلـه العظمي -إذا صـحّ التعبير- وإلا غـدا العمل الأدبي رخوًا، متميعًا، رجراجًا، لا يشده رابط ولا تمسك به شخصية مسـتقلة متبلورة. وإن الالتزام بـ"التوصيل" لهو واحدٌ من أهم العناصر الأساسـية التي يتوجب احترامها، وإلا سقنا معطياتنا الأدبية وقراءنا أيضًا إلى الضياع. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.



أ.د. زيد بوشعراء*



بين عمارة المساجد وعمارة الأرض

مَن تدبر القرآن الكريم، وجد حديثه عن العمارة في الأرض دائرًا بين عمارتين: عمارة الأرض عمومًا ﴿عَمَرُوهَا﴾(الروم:٩)، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:٦١)، وعمارة المساجد خصوصًا ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(التوبة:١٨)، ليلفت الانتباه إلى أن عمارة الأرض مقرونة بعمارة المساجد، وأن ثمة علاقة بين فساد الأرض وبين خراب المساجد، وهي علاقة المسبب بسببه والفرع بأصله.

وذلك أن القرآن عدّ منع عمارة المساجد أعظم ظلم لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾(البقرة:١١٤)، ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(الأنفال:٣٤). والقرآن بهذا الموقف يشير إلى أن السعي في خراب المساجد ومنع عمارتها، جريمة في حق الإنسانية من حيث تسببه في حرمانها من قيام العمران الصالح لها.

يؤكد هذا المعنى أن حديث القرآن الكريم عن: ﴿دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ جاء في موطنين اثنين معللين بحكمتين: ففي سياق ذكره لانتصار داوود عليه السلام على جالوت قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٢٥١). فهذا الدفع يدرأ ههنا مفسدة فساد الأرض كلها.

وفي سياق إذن الله تعالى لنبيّه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بقتال المشركين قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ

إلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٣٩-٤٠).
وهذا الدفع يدرأ ههنا مفسدة هدم بيوت يذكر فيها اسم الله.

والإشارة المفهومة من السياقين، هي أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد، ثم لفسدت الأرض تبعًا لذلك. ففي حفظ المساجد بهذا الدفع، حفظ لنواة الخير التي يمكن أن تنتج الصالحين الذين يقودون الناس إلى إصلاح أرضهم. أما لو بلغ عدوان المعتدين مرحلة هدم المساجد، فإن الأرض تكون قد صارت في وضع يلجأ فيه المؤمنون إلى إخفاء دينهم وقطع صلات ما بينهم فيندثر الدين، وحينئذ لا يبقى في الأرض بقية لصلاح فتفسد كلية وهو ما قضى الله ألا يكون.

مؤسسة تُخرج رعاة العمران الراشد

إن عمارة المسجد إنما كانت بهذه المثابة، لأن المسجد -في التصور القرآني- هو المؤسسة الوحيدة في الأرض المؤهلة لتخريج الراشدين رعاة العمران الراشد، ممن يؤسسه على تقوى من الله ويستعمله في الخير وذلك:

أ- أن المسجد بما يقام فيه من السجود لله وحده، يؤطر المؤمن الموحد ويعوّده يوميًا على أن يلزم حدوده البشرية ويعرّفه بقدره فلا يجاوزه، فيصان بذلك من التحول إلى الطغيان، ويرسخ لديه أن عبوديته لله تقتضي أنه ليس عبدًا لأحد من الناس، وأن ليس أحد من الناس عبدًا له... وشأن عمران يؤسسه ويرعاه هذا الصنف من الناس، أن يكون عمرانًا كريمًا يتنزه عن الطغيان ويوقي من الإفساد في الأرض: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ ۞ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾(الفجر:١١-١٢). ولذلك كانت الصفة الأولى للممكنين في الأرض رعاة العمران الراشد، أنهم يقيمون الصلاة. وقد قرن القرآن الكريم في الجهاد الدفاعي "دفاع الناس بعضهم ببعض" بين بيان كونه يقي مساجد الله من الهدم، وبين بيان أن هذا الجهاد الدفاعي عندما يؤول إلى التمكين في الأرض، فإن إقامة الصلاة هي الواجب الأول فيمن يمكنهم الله.

ب- أن المسجد بما يقام فيه من ذكر الله والصلاة، هو لمرتاديه مركز للتطهر المعنوي والمادي، بحيث تتنزه قلوبهم من آثار الذنوب والإغواءات التي يتعرضون لها بين صلاة وأخرى، والتي لو تركت تتراكم على قلوبهم لأمرضتها، قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(التوبة:١٠٨). والمداومون على هذا التطهر، يكتسبون قلوبًا حية يغالبون بها دوافع الفساد، قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(العنكبوت:٤٥).

وذلك أن العمران الراشد، هو الذي أركانه قيام الناس بالقسط، وفعلهم للخير، وحفظهم لحدود الله وحقوق الناس... عمران بهذه القيم لا يتحقق على أيدي أي كان، بل يتحقق على أيدي قوم يعبدون ربهم أول ما يعبدونه بعبادة الركوع والسجود جماعيًّا في أماكن الركوع والسجود؛ مساجد الله.

إن المحافظة على الصلاة بما فيها من ترسيخ لمعاني الخضوع الفعلي اليومي لله سبحانه، تجدد لدى المؤمنين إرادة الامتثال لأوامر الله وتقوّي لديهم العزم على تحقيق تلك القيم العمرانية المطلوبة منهم شرعًا.

نعم تأثير الصلاة في المسلمين، تأثير متفاوت من حيث درجته وسرعته بحسب تفاوتهم في مدى محافظتهم عليها، لا يبلغ عادة الغاية القصوى، ولكنه تأثير من شأنه أن ينشئ واقعًا أخلاقيًّا عامًّا مغايرًا للواقع الأخلاقي لأي أمة أخرى، ويحول كثيرًا من القيم الحضارية الأساسية إلى سلوكيات جارية، وذلك ضروري لأي عمران راشد، إلا أنه غير كاف حتى تكون الأمة منتقية الأكفاء -علمًا وخبرة- المؤهلين لتدبير عمرانها من بين خيار العابدين



الذين يقيمون الصلاة حق إقامتها وتظهر عليهم آثار نفحاتها. وعدد هؤلاء -وإن كان في العادة قليلاً- فيه كفاية، لأن التدبير المباشر لأمور العمران يتم في العادة أيضًا على أيدي بعض الناس فقط، أما سائر المجتمع -وهم الأغلبية- فيكفي فيهم أن يكونوا على قدر من التدين العام وإن لم يكن عميقًا.

ولقد قال ابن عباس ﷺ: "إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم" (تفسير القرطبي)، والشرط الأول في خيارهم أن يكونوا من مقيمي الصلاة كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾(الحج:٤١).

قيَمُ العمران الصالح

يؤكد أثر إقامة الصلاة وعمارة المساجد في تحقيق قيم الجودة العمرانية الشاملة ما تكاثر في القرآن من الاقتران المقصود بين الأمر بالصلاة والأمر بتلك القيم:

١- أول هذا الاقتران، هو اقتران الأمر بالصلاة والأمر بالقسط في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(الأعراف:٢٩). والقيام بالقسط هو شعار العمران الصالح المصون، والهدف الاجتماعي الأبرز الذي أرسل الرسل لإقامته ودعوة الناس للقيام به. ولا يقام القسط في الأرض على نحو تام إلا بشرطين:

الشرط الأول: اعتماد قانون العدل المطلق المنزه عن التحيز، وليس ذلك إلا في كتاب الله.

والشرط الثاني: تولية الأمر للنزهاء، ولا نزاهة بدون امتلاك الرقابة الذاتية، ولا رقابة ذاتية بدون اليقين بأن الله يعلم ما في النفس. فإذا أسند الأمر إلى مَن هم مِن خيار العابدين، فإن الصلاة التي يواظبون عليها بما تحدثه في قلوبهم من التذكير بالله ويوم الحساب، تكسبهم حالاً من خوف مقام الله يمنعهم من ظلم الناس.

وأما غير المؤمنين، فقلّة منهم فقط هم الذين يكرهون بفطرتهم كل أنواع الظلم ويلتزمون العدل، أما أغلبهم فإن غياب الوازع الديني الذاتي يجعلهم ضعفاء أمام الضغوط والإغراءات وأمام الميول العرقية والأهواء القومية، وأمام الانحيازات العقدية والعداوات الشخصية. لكن الضعف أمام هذه العوامل لا مكان له في قلوب المؤمنين، وإن تسرب منه شيء إلى قلوب بعضهم فإنه يجد فيها مقاومة كبيرة سرعان ما يكون معها مدفوعًا ما داموا من أهل: ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾(النازعات:٤٠).

٢- وثاني اقتران، هو اقتران الأمر بالصلاة والأمر بالشورى الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(الشورى:٣٨).

إن الشورى باعتبارها قيمة عمرانية كبرى ومن أهم وسائل التخطيط والتدبير العمرانيين، تجد لها في الصلاة سندًا متينًا يرسخ وجودها ويضمن تحققها، وذلك أن الصلاة بما تقويه من الوازع الديني في نفوس الممكنين في الأرض، تنفرهم من الاستبداد وتجعلهم في خوف دائم من الحساب يوم القيامة في حال إلحاقهم الضرر بالمجتمع بسبب انفرادهم بالقرار في أي أمر يجب التشاور فيه.

والصلاة بالمسجد في جماعة مختلطة يؤديها مَن علا مقامه في المجتمع بجانب من دنا مقامه، هي من أهم عوامل مقاومة الكبرياء المانع عادة من التشاور. والصلاة بما هي ركوع مع الراكعين وإظهار للافتقار إلى الله واعتراف بالقصور البشري، هي تزكية للنفوس، يستحيل معها أن يظن المواظب عليها أنه قد أحاط بكل شيء علمًا، أو أنه في غنى عن التماس الصواب عند غيره، وغير ذلك من ظنون المستكبرين التي تصرفهم عن الشورى، لكن هذه الظنون لا يمكن أن تسيطر على قلب المؤمن، لأن عمارته للمساجد تكسبه التواضع الذي هو سبيل بسط الشورى.

٣- وثالث اقتران، هو اقتران الأمر بالصلاة والإلزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾(التوبة:٧١)، وقوله تعالى في الطائفة من أهل الكتاب التي كانت لا تزال إلى عهد النبوة على الصحيح من دين المسيح: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(آل عمران:١١٣-١١٤).

إن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كانت هي العلامة الفارقة والصفة التي جعلت الأمة التي صنعها الله على يد محمد ﷺ هي خير أمم الأرض، قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران:١١٠). وإنما كانت هذه الفريضة كذلك، لأنها تشتمل على وظيفتين متكاملتين؛ وظيفة استكمال بناء الحياة العمرانية الراشدة بالعمل على إحياء ما أميت من المصالح المعتبرة، وإيجاد جميع الوسائل العمرانية

المحققة لهذا الغرض وهذه الوظيفة هي "الأمر بالمعروف". والوظيفة الثانية هي وظيفة تطهير العمران من أنواع المفاسد التي تنخره، وذلك بالعمل على إزالتها. وهذه الوظيفة هي "النهي عن المنكر". والوظيفتان تتكاملان في أداء واجب مشترك هو مقاومة أنواع الخلل الاجتماعي المفضية إلى اختلال العمران واضمحلاله.

هذه الفريضة تستند في وجودها إلى عمارة المسجد من حيث أن إتيانه فرصة للذكر، وسماع كلام الله تجعل المؤمنين على الدوام محبين للإيمان كارهين للكفر والفسوق، يرون الحق حقًّا والباطل باطلاً فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. بينما غير المؤمنين وغير المصلّين المتّبعون لأهوائهم، يرون المعروف منكرًا والإصلاح إفسادًا، كما يرون المنكر معروفًا والإفساد إصلاحًا، قال الله تعالى فيهم: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾(التوبة:٦٧).

٤- ورابع اقتران وهو اقتران الأمر بالصلاة والأمر بفعل الخير الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(الأنبياء:٧٣)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(الحج:٧٧).

إن فعل الخير يحتاج لكي يتحقق على نحو صحيح أن يدعم بالإرشاد، وعمارة المسجد بما فيها من السماع لكلام الله المرشد إلى وجوه الخير، وبما فيها من اللقاء بالمؤمنين فاعليّ الخير والدالين عليه، هي خير معين على تحقيق ذلك، إذ تُخرج المصلي من ضيق الفردية والأنانية إلى سعة الحياة الجماعية المرسخة لفضائل الاهتمام بأمر المسلمين والانتفاع بما يدل عليه الصالحون.

والصلاة بما فيها من التذكير بكلام الله المتضمن للوعيد، تساعد على إنشاء التقوى في النفس: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾(طه:١١٣). والخوف من الوعيد هو أكبر حافز على فعل الخير كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾(الإنسان:٩-١٠)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۞ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(المومنون:٦٠-٦١).

كما أن الصلاة إذ تنهى المؤمنين عن الفحشاء والمنكر، تفكّ عنهم قيدًا من أكبر القيود المانعة من فعل الخير. وذلك أن فاعلي المنكر والفحشاء، لا تنهض أنفسهم لفعل الخير عادة إلا استثناءات قليلة متفرقة.

ولقد ذكر الله أن الإنسان بطبعه منوع إذا مسه الخير، وأن الصلاة تخرج كثيرًا من الناس من أسر هذا الطبع اللئيم فقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۞ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ۞ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۞ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۞ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾(المعارج:١٩-٣٥). واللافت في هذه الآيات، أن الصلاة كانت فاتحة صفات المؤمنين وخاتمتها، فكانت إطارًا للقيم التي تجعل الحياة العمرانية حياة طمأنينة وحفظ للحقوق، وثقة متبادلة بين الناس وعفاف أخلاقي.

واقتران الصلاة بهذه القيم يجعلنا نفهم أن إقامة الصلاة وعمارة المسجد من الشؤون العامة للمجتمع المسلم، وليست مجرد شأن شخصي. يزيد ذلك تأكيدًا، أن الصلاة في المسجد جماعة فيها تدريب يوميّ للمؤمنين على النظام العمراني الصحيح.

وذلك أن المؤمنين في المسجد يؤمّهم مَن هو أفضل للإمامة ومن يرضون اتباعه، ويسوون صفوفهم خلفه متلاحمين لا يدَعون بينهم فرجة للشيطان، أُولو الأمر منهم بجنب من تحتهم، وأُولو الطول والسعة بجنب الفقراء، وأُولو العلم بجنب من دونهم، وجهتهم واحدة هي القبلة حتى نسبوا إليها فسُمّوا "أهل القبلة"، وكلهم أثناء الصلاة والخطبة ينصتون إلى الإمام، وهم مكلفون بتقويم أخطائه إذا أخطأ وتذكيره إذا نسي، ويلي الإمام في الصف الأول "أُولو الأحلام والنهى" وهم أفضل الجماعة المأمومة المؤهلون لإصلاح أخطائه ولخلافته في الإمامة... وتلك صورة مصغرة للعلاقة العملية المفروضة شرعًا بين المجتمع وقياداته، وللحياة العمرانية الراشدة التي يؤمها العابدون. ■

(*) أستاذ في جامعة محمد الأول، وجامعة ابن طفيل / المغرب.



التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com



www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال : +20100780831
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution, d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
مربع ٤٨ رقم ٣١ أركاويت – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 991 367 91 86

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

• المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٥٠ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار



العطاشى

عطاشى، للسلام ظامئون...

مسالمون، بالحق قائمون...

أياديهم على الحب تلتقي...

وقلوبهم بالمودة تنبض...

وكل أيامهم، أشواق وحب ووئام...

* * *

تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣٫٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار

